مع الأدب العربي القديم

تأليف
الدكتور داود سلوم

طبع الغلاف بمطبعة البرهان
بغداد - ١٩٦٠

مع الأدب العربي القديم

تأليف

الدكتور داود سلوم

مطبعة الآداب - النجف

بسم الله الرحمن الرحيم

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن
يتم نوره ولو كره الكافرون »

(قرآن كريم التوبة ٩ : ٣١)

الإهداء

إلى الذين أدركتهم حرفة الأدب فقنعوا بما هم فيه من حرمان

داود سلوم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٢	٩	على لذات	على الذات
		مما يدل لنا	مما يدلنا
٤٩	١	مقياسان	مقياسين
٤٩	٦	خليط عجيب	خليطاً عجيباً
٥١	١٠	كان فى انسها	كان لي في انسها
٥٥	٤	لقد	فقد
٦٦	١٧	وخفف	وخففت
٦٩	٧	الأحقاف	الأخفاف
٧٨	١١	كافط	كاقطك
٨٢	١٠	فيحسهم	فيحبسهم
٨٤	٥	الحركتين	الحركين
٩٥	١٧	ولامعارض	ولا ماوضع
		المولدرن	المولدون
٩٦	٤	بأبياب	بابيات
٩٧	٦	يقول له	يقوله
٩٧	٨	شعراً أحسن	شعراً حسن
٩٩	٨	الفاظها	الفاظها
٩٩	١٠	قابط	تأبط
١٠٤	١٠و١١	خرف خرف	خرق خرق
١١٨	٧	الندقى	
١٢٠	٨	حششته	حثثته
١٣٠	١٣	ثمود	ثمودا
١٣٧	١٤	دمد	دور

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٠	٢	الصنعة	
١٤٠	٨	محتقر	متحفز
١٤٠	١٠و١١	يوزع	بوزع
١٤٤	٤	منعت	متعت
١٤٤	٩	الا	الى
١٤٤	١٣	يتعهد	يتعهر
١٤٧	٣	قادر	غادر
١٤٨	١٣	رعيت	ريعت
١٥٠	١٥	الى تعاليله	عن تعليله
١٥١	١	مقايس	مقاييس
١٥٢	١	فكرتين متمايزتين	فكرتان متمايزتان
١٥٤	١٠	هجريين	الهجريين
١٥٧	١٨	وعذر	وعذرا
١٥٨	٢	سوف	سوء
١٥٩	٢	ينحى	ينحو
١٦١	٣	التخليص	التلخيص
١٦١	١١	الشعر عدم	الشعر عن عدم
١٦٢	١٢و١٣	فى	
١٦٧	٥	فانه	فان
١٦٨	٩	في القوة	فى القول
١٦٨	١١	غرافة	غرابة
١٦٩	١٧	ان حسنا	ان فيه حسنا
١٧١	١٤	لم تكتسي	لم تكتس

مقدمة

إن فترة ازدهار الادب العربي في القرن الثاني حتى القرن الخامس فترة تثير من الاسئلة أكثر مما تعطي من الحلول والأجوبة .

وإن هذا التاريخ الادبي الغزير في هذه القرون الاربعة المزدحمة بالابداع والفن لايمكن أن يفيه البحث الادبي حقه مهما غزر . ومهما كتب فهناك مشاكل وأسئلة تحتاج إلى بحث دقيق وإعادة بحث عميق ونقاط تحتاج إلى دراسة ثانية وكتابة وافية وإعادة كتابة مرة اخرى . ذلك لأن شيئاً جديداً ينشر علينا في كل يوم يضيف إلى معلوماتنا شيئاً .

وهذه فصول كتبتها وركزت فيها على نقاط معينة لم أحاول أن أتعداها إلى غيرها ولم أحاول أن أعمم نتائجها . وقد تحريت فيها الدقة جهدي وكان هدفي منها البحث عن الحقيقة مجردة من كل ميل أو هوى وعسى أن أكون قد سهلت مهمة الباحث الذي يأتي بعدي في النتائج التي عرضتها وإن كنت قد أصبت فبالحري وإلا فالخير أردت .

بغداد ١٩٦٠   داود سلوم

أدب العدل في الاسلام

— ١ —

هيأت السماء للارض نبياً ، وأرادت السماء للارض حياة جديدة ومثلا غير مثل الجاهلية الاولى . فقد كانت تسود الأمة الموزعة القوة ويحكمها الظلم فكان كليب يجير على الارانب وعلى الجراد وان كليباً لنموذج خالد لما كان الحكام والامراء والشيوخ يعملون في الجزيرة ولما كانوا يسومون به الناس الخسف فى قبائلهم ولما كانت عليه القبائل القوية حيث تذيق الذل للضعفاء .

هيأت السماء للارض عهداً جديداً وأرسلت محمداً بالاسلام وبشر بتعاليمه وقبلها من قبلها ورفضها من رفضها أول الامر ثم استجاب الناس لها في الجزيرة مجمعين وخلقت تعاليمه الناس خلقاً جديداً ووضعتهم موضعاً غير الموضع القديم . وجعلت من الفرد فرداً كريماً على نفسه ، له من الحق أن يقول وله من الحق أن يسمع له وله من الحق أن يحتج !!

ففي بدر كان محمد يقيم الجند ، ويرتب الصفوف فى جيشه القليل العدد ، البعيد الهمة فضرب رجلا فرداً على بطنه من الناس الذين تبعوه حباً لتعاليمه فصرخ الرجل :

— قدني يا محمد ! لقد ضربتني . فكشف له الرسول عن بطنه

الكريم فاحتضنه البدوي وقبله منه : وكان الرسول يقسم فى الناس يوماً فقام اليه رجل فقال له :

— انك لم تعدل فينا منذ اليوم ، فرأى المسلمون الغضب في وجه الرسول واحتمع له ويروى انه قال له :

« فمن يعدل اذا أنا لم أعدل » . وقيل انه قال له : « إائتمنت على السماوات والارضين ولم تأتمنوني ؟! » .

وطلب منه عمر أن يسمح له فيقتله فلم يرض .

وفي سيرة عمر غرائب في ميله الى « العدل » وفي مبالغته في الاخذ به . واننا لنقف دهشين أمام سيرة هذا الرجل الشديد على من أسلم أول انتشار الاسلام فنراه يعود وديعاً أكثر وداعة من الحمل ، ذلك العادل الذي لقبه من عاش معه بالفاروق ولم يلقبوه خوفاً ولا نفاقا ورياء .

ومال عمر الى العدل والانصاف حتى ضرب عمروا وابنه ولامهما فى مولى ضرب ظلماً . وحين أخذ الخليفة حصته من قماش كما يأخذ المسلمون فلم تكفه حصته لتكون له ثوباً فطلب من ابنه أن يعطيه حصته فلما ليم بأنه أخذ أكثر مما أخذ المسلمون أشهد ابنه على ذلك.

ومثله علي بن أبي طالب ، لقد كان فتى قوياً شديداً ، ولكنه عرفناه من جديد فى سيرته ، لقد كان يبالغ في العدل فقد أراد أن يقطع يد ابنته زينب لأنه رأى فى رقبتها قلادة من بيت المال أعارها

إياها صاحب بيت المال فظن الامام عليها السرقة . وكوى أخاه عقيل لأنه أراده أن يهب له أكثر من حقه من الشعير لطعام أولاده الجياع!

وفي صفين خرج من جيش علي رجل صارخا بجيش الامام بأنه قد ضاق بحرب بين المسلمين لا فائدة منها ولا يعرف لها سبباً إلا ان كل رجل من الرجلين يريد أن يملك فلم إذن يقتل الناس بعضهم بعضاً وقتل شخصاً من جيش الامام فاتجه الى جيش معاوية يصرخ معلناً انه خلع معاوية فكثروه الجند فعاد الى جيش الامام يعلن انه خلع علياً وقُتل الرجل .

فهل يتمكن القارىء أن يربط بين كل هذه الحوادث ؟ هل نتمكن أن نربط بين عمل محمد في رفعه ثوبه عن بطنه ليضرب عليه وبين صراخ البدوي انه يريد القود من الرسول ؟ هل نتمكن أن نعرف العلاقة بين احتجاج الرجل على الرسول بأنه لم يعدل وبين وقوف عمر على صراط العدل وقيامه على أمر أمة أعظم قيام وأكمله وأتمه وقد آلم نفسه وأهله في سبيل نفوس المسلمين وأهليهم !؟

وهل من علاقة بين سيرة علي بن أبي طالب في ابنته وأخيه وبين سيرة الخارجي الذي خلع معاوية وخلع علياً ؟

أما أنا فلا أرى من تناقض في هذه الاحداث وإنما أرى شيئاً واحداً هو : ان أمر هذه الأمه المتفرقة التي كان يرهقها الظلم وتحكمها القوة ويتسلط عليها العدوان قد عاد شيئاً آخر وقد أصبح الفرد

بالنسبة للمجموع ذا شأن خاص .

لقد كان العرب في الطرف الاقصى فعادوا الى الطرف الآخر الاقصى لقد كان يحكمهم ظلم متطرف فعاد يحكمهم الآن عدل متطرف أو عاد ينازعهم الميل إلى عدل متطرف !

وكان هذا العدل يبدو أحياناً كالسراب البعيد إذ كان واقع الحيـاة التي بدأت تتطور لا كما أرادها الاسلام بل كما أرادتها سنة الحياة ومن هنا بدأ الناس الذين يميلون الى هذا العدل المتطرف ويطمحون الى هذا العدل البعيد يتجمعون . فنشأت الشيعة التي كانت تريد شيئاً والواقع يريد شيئاً آخراً ونشأ الخوارج الذين كانوا يريدون شيئاً والواقع يريد شيئاً آخراً وضاق الاول بالسلطان ضيقاً شديداً وضاق الآخرون بسيرة السلطان ضيقاً شديداً أيضاً .

وكان الخوارج والشيعة يتحدون في الغاية ويختلفون في الوسيلة يرى الشيعة ان السلم وحكم آل البيت هو أقرب السبل وأصحها الى هذا العدل المنشود وكان الخوارج يرون ان السيف والضرب به هو أقرب السبل وأصدق أنباء وأصحها الى هذا العدل المنشود . وترك هذان الحزبان لنا شعراً وأدباً يصور لنا تلك الفترة من الطموح الى العدل بعـد أن نزل الى الارض قليلا على عهد الراشدين فأذاقهم حلاوته ثم ارتفع عنهم فتمناه الناس ثم أعقبوا هذا التمني بالتحقيق وكان التحقيق عن طريق السيف أحياناً وعن طريق السر والدعوة

أحياناً أخرى .

ونرى نحن أيضاً فى الأحداث التي عرضناها ان الفرد بعد الاسلام أصبح أكثر شأناً وأبعد أثراً وأهم مركزاً وإلا فما للفرد يحتج على الجمع وما للرعية تحتج على السلطان وما للجمع يستمع للفرد وقد ينقاد له وما للسلطان العادل يستمع للرعية ويأخذ بقولها وينقاد لها !

ومهما قيل ان جذور ذلك موجودة فى نفوس الجاهليين إلا اني أرى ان الاسلام ربّى نفوس أصحابه تربية اخرى وشجعهم على التعبير عن آرائهم بصراحة وقوة فى الله وفى سبيل العدل والحق !

— ٢ —

خصائص هذا الأدب

لقد افتقد العرب والمسلمون بعد منتصف القرن الأول خصائص العدل وصعد العدل الى السماء لا لأن العدل قد قُدر لأوائل المسلمين ولكن لأن المتأخرين من المسلمين عجزوا عن أن يقيموا أمورهم وأن يعدلوا فيما بينهم وبين نفوسهم وفيما بينهم وبين الناس . وأخذ الناس يحلمون ويتمنون ويحاولون !

وكان السلطان منذ عهد مبكر قد بدأ يجمع حوله البطانة للاقرباء والأصدقاء وأصبحت الدولة لا للمسلمين وإنما للاسر والعوائل ، فبنو أمية فى عهد عثمان يسيطرون على الامبراطورية الفتية . وبنو أمية ومقربوهم يسيطرون على الامبراطورية الفتية في عهد معاوية ويزيد ، وبنو مروان وصنائعهم يسيطرون على الامبراطورية فى عهد عبد الملك والوليد وهشام وغيرهم .

إذن لم تعد الحكومة للناس ولم يكن الناس من الحكومة فى شيء ولم يكن السلطان للناس ولم يكن الناس من السلطان في شيء وإنما الحكومة والسلطان لأهل الحكومة وأهل السلطان ولاخوانهم وأبنائهم وأبناء أعمامهم والأقرباء والأصدقاء والدخلاء والبطانة والذيول . ونظر الناس من أبناء الأسر العربية المسلمة التي جاهدت

وضحت بالمال والدماء فرأت أنفسها بعيدة كل البعد عن الحكم فيما يضر المسلمين وما ينفعهم وإنما هم يساقون ويقرر لهم ما يريدون أو مالا يريدون وإنما عليهم أن يطيعوا ويسمعوا .

وأما الناس من غير أبناء الأسر العربية من الذين استولى عليهم المسلمون استيلاء ومن الذين أخذتهم الجيوش أخذاً عنيفاً بالسيف أو أخذاً رفيقاً بالصلح والجزية والخراج فلم يكن لهم في أمرهم شأن وإنما هؤلاء الناس عليهم أن يقبلوا ما يحكم به السلطان لهم وما يقرر وما يأمر . فعبد الملك يأخذ من المصريين كل مايستحصلون في كدهم جزية بعد إسقاط مايسد الرمق وإنما الباقي من ذلك فهو ملك السلطان وله حل .

ولم يكن السلطان يسائل في هؤلاء الناس وهم يسامون سوء العذاب حتى لو دفعوا الجزية أو أسلموا الخراج فهم فى إهانة وفى إرهاب وفي تخويف وفي ضرب يُخرج الصابر عن صبره ولقد مثل الكميت لنا ذلك أحسن تمثيل كله صدق وكله حرارة مما يدل على انه صورة من الواقع المؤلم الذي كان يحياه الناس . قال :

ساسة لا كمن يرعى الناس سواءاً ورعيه الانعام
لا كعبد المليك أوكوليد أو كسليمان بعد أوكهشام
رأيه فيهم كرأي ذوي الثلة في الثائجات جنح الظلام
جز ذي الصوف وانتقاء لذي المنحة نعقاً ودعدعاً بالبهام

من يمت لا يمت فقيداً وان يحي فلا ذو إلٍّ ولا ذو ذمام

لقد كان الكميت ، ومن عاش الى عصره يندبون العدل الذى ولّى والمثال الذى صعد الى السماء ، والذى نزل الى الأرض زمناً والذى لا يراه الكميت ومن معه يرجع الى الأرض إلا بحكم آخر وبأناس آخرين

وان في تشبيه الرعية بالأنعام والساسة بالرعاة في هذه الأبيات لصورة رائعة حقاً تصور الساسة كالرعاة همهم في القطيع من البهائم أن يجز ذوات الصوف ويذبح السمين ويقود البهام الصغار الى المرعى لتكبر فيجز ذات الصوف ويذبح سمينها ويصف هوان الناس على السلطان بأنهم ان ماتوا فلن يفتقدوا ولن يسأل عنهم ولن يعرفوا ! وإن عاشوا فمن هم ؟! أذو قرابة ؟ كلا ! إذن فليحيي وهو مطرود فقير مشرد ! أذو ذمام وحرمة وله في السلطان سبب ؟! كلا ! إذن فليحيي مطارد من عامل الخراج وعامل الجزية . فهذه إذن الخاصة الاولى من هذا الشعر :

انه يصور ضيق الناس بهذا السلطان لأنه استأثر من دونهم بالحكم والسلطة فعز أهله وأذل الناس بالحكم الجائر وأشعرهم بهوانهم وذلهم فان عاشوا وإن ماتوا وإن حيوا وإن فنوا فهم هم أذلاء مستعبدون !

أراد الله أو أراد الرسول ولتكن إرادة السماء أو إرادة محمد فكلاهما شيء واحد . فالسماء توحي لمحمد أخبارها ومحمد يذيع الأخبار عن السماء ويتحدث بحديثها وما ينطق عن الهوى . أراد محمد أن يحفظ مال الدولة الفتية ويمنع الاعتداء عليه والوصول اليه والاستئثار به فأسماه (بيت مال الله) فمن أخذ منه بغير الحق فقد سرق الله ومن سرق الله فلن يهرب من مشيئة الله ولن يخرج من أرضه ولن يخرج من سمائه ولذا فلن تجد سارقا يتمكن أن يسرق هذا المال أو يستأثر به مع أقربائه أو أصدقائه أو يحابي قوماً ويحرم قوماً وإنما هو مال الله يوزع فى عبيد الله بالتساوي والانصاف ونجـــد خلفاء المسلمين الأوائل ومن قبلهم الرسول يتحوبون ويتذممون ويحذرون أن يصيبوا من مال الله بغير الحق . أرجع أبو بكر مافضل من دراهم كانت امرأته توفرها عليهم وأدخل عمر بيت مال المسلمين هدية زوج ملك الروم الى زوجه أم كلثوم تذمماً وتحوباً وكوى علي بن أبي طالب يد عقيل في قفة شعير تزيدها عليه . هذا زمن العدل الحق وحين تحول السلطان من الراشدين الى دولة اخرى اختل الميزان كثيراً واختلفت سيرة الأشخاص لأنهم لم يكونوا يصدرون عن شريعة واحدة وإنما سيرتهم

سياسة جديدة ومثل أخرى تختلف عمن سلف اختلافاً كثيراً فيه مجال واسع لمن يريد البحث ولكن نحن لا نؤرخ ذلك وإنما نشير الى البواعث التي بعثت هذا الشعر وخصائصه .

ففي هذه الفترة استأثر السلطان ومقربوه بالمال وجبوه من بعيد ومن قريب بالشدة وباللين وقد حرموا من هو أحق به من غيره . فقد يحارب مسلمون أسلموا وجههم لله إلا انهم لم يكونوا بعرب أو لم يكونوا من أنصار السلطان القائم فحرموا من نعمة المال فضاق بهم العيش وضاقت بهم السبل فالناس أينما توجهوا فانما هو استئثار عجيب ، استئثار بكل شيء . استئثار بالحكم والسلطان واستئثار بملك أراضي الخراج والأراضي التي جففت من المياه ، واستئثار بنعمة المال المجبي ، فضاق الناس ذرعاً بذلك واستغاثوا ولكن لم يكن من مجيب . فان واقع الحياة كان يقتضي ذلك . فالقوة الظالمة هي التي تحكم ولم يحكم العدل كما كان حيث اشتد وقوي وتعاظم نفوذه فى النصف الأول من القرن الأول والذي بدأ يذبل ويذوى ويميل نحو الاضمحلال السريع بصورة مخيفه !

وقد ثار الموالي بالناس في الكوفة على يد المختار وثار الناس بالموالي وبالمختار واحتجوا عليه بأنه أطلق عليهم مواليهم وانه أراد أن يقاسمهم أرزاقهم التي يغنمها الموالي والأسياد في الحرب . فكانهم لم يرضوا لمواليهم أن يقاسموهم مايربحون مشتركين فى الغزو والحروب .

وقد صور الشعر هذا الظلم وقد صور طموح الناس الى هـذا النوع من المساواة والى هذا النوع من العدل المتطرف . فقال الكميت :

فياساسة هاتوا لنا من حديثكم ففيكم لعمري ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيـه وأنتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفة فريقان شتى تسمنون ونهزل

وقال :

تحل دماء المسلمين لديهـــم ويحرم طلع النخلة المتهـدل !
واظاؤنا الاعشار مما لديهـم ومرتعنا فيهم إلاء وحرمل
وليس لنا في الفيء حظ لديهم وليس لنا في رحلة الناس ارحل
فيارب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول !

فقد كان الناس يشعرون هذه النقلة من عـدل شامل كاد أن يأخذ بأطراف الأرض ويحيطها ويشملها الى هذا الظلم الذي أخـذ بأطراف الأرض وأحاطها وشملها . وكان الناس يشعرون ان الـكتاب الذي جاءهم من السماء لاتحويه كتب الخليفة الى ولاته فى الأمصاروفى القرى والأرياف ولا تحوي من روحه شيئاً وإلا فما للشاعر يقول :

أأهل كتاب نحن فيه وأنتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدل؟!

لقد كان يحتج ويخاصم بشدة وإلحاح ولقد كان الناس فريقين منهم الجياع الغرثى الذين أذهلهم الجوع عن أمرهم ومنهم الشباع الذين أرهقهم الشبع وشغلتهم بطنتهم عن النظر الى الناس والرأفة بهم لقد كان الناس جياعا ومتخمين . كان الناس أغلبهم هم الجياع

وكان القلة من الناس متخمين ولو كانوا يأخذون بالكتاب لما سمن من سمن ولما هزل من هزل ولذا فهو يقول :

فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفة فريقان شتى تسمنون ونهزل

ويذهب الشاعر في تصوير حال هؤلاء الناس المحرومين ونصيب هذه الكثرة من الحرمان ويذهب الشاعر فى تصوير حال هذه القلة من الناس المحظوظين ونصيب هذه القلة من النعمة التي تجاوز الحاجة وتجاوز مايحتاجه المرء لغده والى مايحتاجه لبعد غد وبعد بعد غد . وإنما مضى هذا السلطان فى حرصه وفى غلوه فى هذا الحرص وهذا الطمع وهذا الميل الى احتجان أموال المسلمين ومضى الناس في طلبهم وإلحاحهم وتسائلهم واحتجاجهم الصامت مرة والناطق مرة أخرى .

فالشاعر يصف نصيب هذه الكثرة الغالبة من الناس فقد يهدر دماءها السلطان ولا يبيح لها ماتزهره النخلة من طلع لم يعد بعدُ شيئاً يؤكل أو يكن له قيمة . ومع هذا فقد يحرم هؤلاء الناس من فيئهم وما أفاء الله إنما هو ملك الناس الذين غنموه . قال الشاعر :

وليس لنا في الفيء حظ لديهم وليس لنا في رحلة الناس أرحل
فيارب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول

ويعود الشاعر بلسان الكثيرين الى الطموح والنظر الى السماء ثانية يطلبون العدل لعله ينزل ثانية الى الأرض . فالخاصة الثانية لهذا الشعر إذن : هي طلب المساواة في الفيء وفي الأرزاق وحفظ بيت مال الله وموارد المسلمين من المتلاعبين من الجباة والولاة والامراء والخلفاء واقربائهم!

وكان هؤلاء الشعراء قد تركوا أثراً آخر وسم شعرهم به وأصبح خاصة من خواص هذا الشعر فى هذه الفترة من الزمن لقد كان الناس حينما جاء الاسلام سادة وعبيداً ، السادة هم أبناء القبائل من قريش ومن أبناء العرب . والعبيد هم الاسرى ومن اشتري من إفريقيا ومن اسر من الروم فبيع فى مكة والموالي من العرب الذين استظلوا بظل الاقوياء حيث الأمن والطمأنينة . وكان الناس ينظرون نظرتين مختلفتين فالسيد غير العبد والعربي الاصيل في قبيلته غير العربي الملحق نسبه فى القبيلة .

وكانت طبقة العبيد تسام الذل فى مكة وتقاسي طغيان الارستقراطية فجاء محمد وقال للعبيد عن لسان الله بأنهم لايختلفون عن أسيادهم فى الخلقة والطبيعة والحقوق فكل الناس أحرار وكلهم لايعبدون إلا الله وان مايعبدون من الناس إنما هم بشر مثلهم لافضل لهم عليهم ولا يقدرون أن يخلقوا ذبابا ولا أن يسترجعوا بعض مايسلبهم هذا الذباب فما أضعف هؤلاء السادة إذن ! وأشار الرسول في خطبه وفي قرآنه أن الناس سواسية وان كل الناس من صلب آدم فكلهم من تراب ومن صلصال كالفخار ومن حمأ مسنون ولم يعد لاحد على أحد فضل ولا ميزة ولا حق . وقص لهم الله من أحاديث الامم الماضية مازاد هذه الطمأنينة فى قلوب الناس وثبت الذين أصيبوا بطرف من خوف . فقال تعالى :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون . »

أنكرت قريش هذه المساواة وأكدت السماء هذه المساواة وكانت الحرب سجالا في بدر وفي أحد وفي الخندق وأخيراً : إنتصر الاسلام ! أي إنتصرت مُثل الاسلام في المساواة وأصبح « بلال » في الحقوق والواجبات لايختلف عن أبي سفيان سيد بني أمية في الحقوق التي له وفي الواجبات التي عليه .

وأصبح البدوي المجهول يطوف حول البيت لايختلف عن جبلة ابن الايهم ملك الغساسنة وأصبح عمر أمير المؤمنين لايرى في نفسه ميزة يمتاز بها على أحد من المؤمنين أوخلة تفرقه عن غيره من المسلمين فيركب عبده على بعيره ويسوقه به كما يُركبه العبد ويسوق به البعير .

وكادت أن تتوطد هذه الديمقراطية وكادت أركانها أن تتأصل إلا أن روحها المثالية لاتستطيع كل النفوس أن تستسيغها وإن مجاورة الامم الجديدة وصراع العرب مع حضاراتها وتقاليد وثقافات تختلف عما ألفوا وعما جاءهم به الاسلام أنساهم هذه الديمقراطية بسرعة فذهب هذا الميل نحو المساواة بسرعة وزال بزوال عهد الراشدين وارتفع من الأرض حقاً بعد موت العبد الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله !

بدأت الارستقراطية العربية تتكتل وتتجمع في دمشق على يد معاوية

واستكملت أسبابها في الوقت الذي استكملت به الدولة العربية المسلمة قواها ومسكت على الامصار بيد من حديد . وكلما كانت تشد قبضتها كان الناس من الملايين يضجون ويأنون ويشكون ويسألون عن روح الاسلام ولـكن لايجدون ولا يرون شيئاً . فروح الاسلام فى هذا العهد كما قال الشاعر :

اني لافتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

لقد كان الأذان يذاع فى الناس خمس مرات في اليوم يذاع قبل طلوع الشمس فى الصباح ويذاع فى الناس عند الظهيره وعندالعصروفي وقت المغرب وفى العشاء ولـكن لايذاع من روح الاسلام فى الناس مثقال ذرة .

لقد كان الناس يؤدون لله دينه من صلوات وصيام ولـكن لم يؤدوا تعاليم محمد التي أنزلها الله عليه الى الارض وأرادها أن تشمل جميع من على وجه البسيطة بالنور والرحمة والرأفة والعدل .

كانت الارستقراطية لاتتجاوز ربع مليون فى كل أرض العرب وفي كل تربة ملـكتها سيوفهم حتى حدود الأندلس في الغرب وحدود الصين في الشرق ولم يكن يتجاوز من يأخذ الرزق من سيد وجنـدي ومرتزق ثلاثة أرباع المليون في أبعدالافتراضات ولـكن كان هناك مالايقل عن ٥٠ مليوناً من الناس يشقون ويجنون ويقتطع كسبهم منهم كما تجز أصواف القطيع وفوق كل هذا كانوا يحتقرون .

كانت الارستقراطية تعبد العرب ولا تميل إلا اليهم فان كانت أم المرء أمة فهو هجين وإن كان أباه مولى وامه أمة فهو علج لا يكون نصيبه فى السلطان الجديد باكثر من نصيبه الأول ولعل مايصيبه من الذل يكون أكثر وعلى هذا نشأ في هؤلاء الناس الشعراء الذين بدأوا يعبرون عن ميول الناس ورغباتهم وأطماعهم ومثلهم التي يرجون تحققها .

وان النقد لهذا النوع من حياة الارستقراطية العربية نراه واضحاً في شعر الخوارج وبصورة خاصة شعر عمران بن حطان فهو خير من مثله وهو بلا شك كان يمثل بشعره طبقة كبيرة جداً أكبر من الارستقراطية العربية وأكبر من جنودها ومن مرتزقيها .

قال عمران بن حطان يخاطب روح بن زنباع :

فاعذر أخاك ابن زنباع فان له ... في النائبات خطوبا ذات ألوان
يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن ... وإن لقيت معديا فعدناني !

وقال عمران بن حطان أيضاً :

ان التي أصبحت يعيي بها زفر ... أعيت عياه على روح بن زنباع
مازال يسألني حولا لاخبره ... والناس من بين مخدوع وخداع
حتى إذا انقطعت عني رسائله ... كف السؤال ولم يولع باهلاعي
فاكفف كما كف عني انني رجل ... اما صميم وأما فقعة القاع
واكفف لسانك عن لومي ومسألتي ... ماذا تريد الى شيخ لاوزاع
إما الصلاة فاني غير تاركها ... كل امرىء للذي يعني بهساعي

وقال عمران بن حطان أيضاً يمدح جماعة من الأزد :

فأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر أتوني فقالوا من ربيعة أو مضر
أم الحي قحطان ؟ فتلكم سفاهة كما قال لي روح وصاحبه زفر
وما منهما إلا يسر بنسبة تقربني منه وان كان ذا نفر
فنحن بنو الاسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر

وقال نهار بن توسعة اليشكري :

دعيّ القوم ينصر مدعيه ليلحقه بذي الحسب الصميم
أبي الاسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

كانت الارستقراطية تنظر الى المرء بعد ان تنظر الى نسبه وتنزله المنزلة التي يستحقها فان كان مضريا وأهل الخلافة مضريون فهو في السنام والشرف وهو عربي ان كان من ربيعة أو قحطان فله من المقام أعلاه . ولم تكن الارستقراطية تنظر الى مايراد من المرء من خلق ومن دين فلم تنظر الى الدين والى قيمة مايعمل وكان ميزان الاسلام غير هذا الميزان قال الله تعالى « ان أكرمكم عندالله أتقاكم » والارستقراطية ترى ان اكرمكم عندنا أقربكم لنا نسباً . فضاق الشعراء بهذا الخلاف الذي حدث بين روح الاسلام وعدله وبين حكم الخلفاء وظلمهم وضاق الناس ذرعا بهذا الخلاف أيضاً فترك الشعراء لنا في ذلك شعراً وترك الناس في ذلك ذكراً . لقد سجل التاريخ لهم ثورات عديدة منها ثورات الشيعة والخوارج وثورة العباسيين التي لم تثمر عدلا وانما أثمرت عروشاً

وثورة الزنج وثورة القرامطة الخ .

فالخاصة الثالثة إذن في هذا الشعر دعواه الى المساواة بين الناس وان الناس سواء أمام الدين ولا يتميزون بالنسب وإنما يتميزون بالتقوى وحب الله وحب الخير للناس .

مراجع النماذج الشعرية

١ ـ الهاشميات للكميت الأسدي

٢ ـ الكامل : للمبرد ج ٣

ابن المعتز

(٢٤٧_٢٩٦)

لله درك من ميت بمضيعة ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لوٌ ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

علي بن بسام

عصره وبيئته :

كانت الفترة التي عاش فيها ابن المعتز من أسوأ فترات الحكم التي عرفت في تاريخ الخلافة . فقد وصل تحكم فتيان القصور وجواريها حداً بعيداً وضعفت الخلافة الى درجة أصبح فيها عزل الخليفة لا يكلف شيئاً سوى أن تسمل عين الخليفة نفسه أو يتهم بعمل سوء فيعزل .

ولا شك أن البيئة التي عاش فيها ابن المعتز الشاعر قد تركت في نفسه أثراً سيئاً وانطبع هذا الاثر في شعره ونتمكن نحن أن نجد في ديوانه صورة تكاد تكون كاملة للمظالم والمساوىء التي كانت موجودة وصوراً كثيرة لضعف الخلفاء وتوصل من لا يستحق الى مراتب الامارة وعلى ما في شعره من خيال نتمكن أن نحصل من شعره على حقائق هي أثمن مما نحصل عليه من بطون التاريخ كالطبري وابن الاثير (وهو قد نقل عن الأول) واليعقوبي وغيرهم . وهؤلاء قد يعطونا المعلومات مشوهة أو مختصرة لانهم كانوا يحذرون السلطان حين كتبوا هذه الاخبار .

وقد نظم ابن المعتز ارجوزة طويلة في تاريخ ابن عمه المعتضد وكان قويا الى درجة ما . فرد كثيراً من المظالم وأرجع هيبة الخلافة و :

قام بأمر الملك لما ضاعا　　وكان نهباً في الورى مشاعا
فذلك ليست له مهابه　　يخاف ان طنت به ذبابه (١)

ويصف في هذه الارجوزة أحوال الخلفاء :

وكل يوم ملك مقتول　　أو خائف مروع ذليل
أو خالع للعقد كيما يغنى　　وذاك أدنى للردى وادنى (٢)

ويصف أعماله التي قام بها وبعرضها يرينا أعمال الفساد التي كانت منتشرة وكثرة الخراب الذي ساد المملكة قال :

سار الى الموصل ينوي أمرا　　فملأ البر معاً والبحرا
وكبس اللصوص والأفرادا　　وأمن البلاد والعبادا

. . . .

وكان في دجلة ألف ماخر　　لم يعنها إلا جناح طائر
يجبون كل مقبل ومدبر　　مجاهرين بفعال المنكر
كم تاجر راوغهم بزورقه　　فاغمدوا سيوفهم في مفرقه

هذه ناحية مهمة من نواحي الأمن في البلاد وهذه في الحقيقة

---

(١) ابن المعتز : ديوان أمير المؤمنين ابن المعتز العباسي تفسير محيي الدين الخياط / ١٣٣١ هـ ص ١٥٢

(٢) ص ١٥٢

لها أثر كبير على النفوس والشعب الذي لايجد أمناً وعدالة يسوء ظنه في الحياة وتصطبغ نظرته بصبغة سوداء حين ينظر الى الاشياء فتختفي عن عينيه الحقيقة فلا يكاد يميزها وكان هناك في المجتمع الاسلامي من النصارى واليهود والمجوس عدد كبير لازالوا يدفعون الخراج ولا سيما موالي إيران وهؤلاء يدفعونه في كل عام في « النوروز » . وكان النوروز حسب الشهر القمري يتقدم كل سنة وكان الفرس يؤخرونه كل عدة سنين أمداً فيرجعونه الى وقت الحصاد ولكن الاسلام هدم هذه القديمة فأخذ النوروز يتقدم وقد يأتي والزرع لازال أخضراً . فكان يجبر الناس على الاستقراض بالربا الفاحش وكان فضلا كبيراً من المعتضد للشعب البائس ان يؤخر النوروز :

ومن أياديه على الكبير ... من العباد وعلى الصغير
النازح الدار البعيد عنه ... في كل أرض والقريب منه
تأخيره النيروز والخراجا ... ولو أراد أخذه لراجا
تكرما منه وجوداً شاملا ... وحزم تدبير وحكم عادلا
وعيدنا بكل من كان بلي ... مستأديا والزرع لم يسنبل (١)

ويصف لنا صوراً من العذاب الذي كان يذيقونه الناس من الذين لاقدرة لهم على دفع الخراج :

فكم وكم من رجل نبيل ... ذي هيبة ومركب جليل

---

(١) ص ١٦٤

رأيته يعتل بالاعوان　　الى الحبوس والى الديوان
حتى اقيم فى جحيم الهاجرة　　ورأسه كمثل قدر فائرة
وجعلوا فى يده حبالا　　من قنب يقطع الاوصالا
ودلدوه في عرى الجدار　　كانه بزادة فى الدار(١)

ثم نرى إسلوب إلحاح الموظفين الجشعين ويكاد لايخلو منه دهر فهم فى كل زمن يساومون الناس فى واجبهم :

حتى إذا طال عليه الجهد　　ولم يكن مما أرادوا بد
قال أأذنوا لي أسأل التجارا　　قرضاً وإلا بعتهم عقارا
وأجلوني خمسة أياما　　وطوقوني منكم أنعاما
فضايقوه وجعلوها أربعة　　ولم يؤمل في الكلام منفعة

ويصف أصحاب الربح الحرام :

وجاءه المعينون الفجرة　　وأقرضوه واحداً بعشره
وكتبوا صكا ببيع الضيعه　　وحلفوه بيمين البيعه
ثم تأدى ماعليه وخرج　　ولم يكن يطمع فى قرب الفرج

ويصف الموظفين حينما يأتون بمطالبته بالخراج :

. . . .

وان تلكا أخذوا عمامته　　وخمشوا أخدعه وهامته

(١) ص ١٦٤

فالآن زال كل ذاك أجم   وأصبح الجور بعدل يقمع (١)

لقد انتشر اللصوص في البر والبحر وكان موظفوا الدولة أشد من اللصوص وقعاً في نفوس الناس كما رأينا وكان اللصوص حتى ليقطعوا طريق الحاج الى ربه كما نرى :

فكم ملبّ أشعث قد أحرما   يرجو من الله العطاء الاعظما
جاء الى الكعبة من ارمينيه   ومن خراسان ومن افريقيه
وعابد جاء من الشامات   قد سار في البر وفي الفرات
وتاجر مع حجته وعمـــرته   يطلب ربح ماله فى سفرته
مقدر فى الربح أضعاف الثمن   من قاصد صنعا الى أرض عدن
فهم كذاك سائرون ظهرا   أو تحت ليل او ضحا او عصرا
اذ قال قد جاءكم الاعراب   وكثر الطعان والضراب «٢»

فاي بيئة هذه التي تنشر الرعب في النفوس ولا يقر للناس فيها قرار ! فالمرء يتوقع الشر في كل وقت ظهراً « او تحت ليل او ضحى او عصرا » وان خوفا مثل هذا يسيطر على النفوس في كل حين لا يكاد يترك للنفوس مجالا لكي تنعم في الحياة فتنظر اليها بعين باسمة مشرقة فانتشرت في تلك البيئة القلقة الآراء الغريبة التي جاءت من الزردشتيه والخرمية من طرف إيران والحيرة فولدت في المجتمع الاسلامي في العراق وسوريا آراء غريبه كالزندقة والاسماعيلية والقرامطة والغلاة

(١) ص ١٦٥   (٢) ص ١٦٨

من الشيعة وكانوا يسببون أذى للناس لاينقطع فيما ينفثونه بين الناس من أقوال تقوم على التفرقة وفت الساعد :

والقرمطيون ذوو الآجام　　صغوا فقد باؤا مع الآثام
وشرعوا شرائع الفساد　　واهلكوا اهلاك قوم عاد
كانوا يقولون إذا قتلنا　　صبراً على ملتنا رجعنا
من بعد أيام الى أهلينا　　فقبح الرحمن هذا الدينا

. . . .

يجاهدون عن امام مختفي　　يقرب الوعد لهم ولا يفي

فهو يشير هنا الى مذهب التناسخ والرجعة والامام المنتظر كالابومسلمية والخرمية والزردشتية وغلاة الشيعة وغيرهم الذين ينتشرون انتشاراً مرعباً في البلاد الاسلاميه وأخذوا يناوؤن السلطان العباسي بعد ان فشل السلطان العباسي في ترضيتهم .

وقد اضطربت امور التولية واضطربت امور الوزارة فلا تقوم اليوم إلا لتسقط غداً وأصبح الوالي غير آمن على نفسه ولا يعرف في أي لحظة يأتيه أمر العزل ويسوقه غريمه الوالي الجديد الى السجن يستخرج الديون التي عليه للدولة من بيعه بيته وآثاثه وخدمه وجواريه وسلب وقتل أقربائه وحاشيته والدخلاون وقد ترك هذا أثره فى نفس ابن المعتز الحماسة فصدر عن نفسه الى شعره قال :

شخوص ولاية كشخوص عزل　　على دهش وعز مثل ذل

ومجنون يخاص بعـد حبس وأقيـــاد وسلسلة وغل
ولم تقض الحقوق ولا اقتضاها بتمايم وتوديـــع لجل
ولم أر قبـله ريحاً عصوفاً مجمعة وطوماراً برحـل
وأحسبها سيطلبها سريعاً ويرجع خائباً يرغو ويغلي
ووجه العزل يضحك كل يوم ويطبز في قفا الوالي المدل (١)

ويصور مقدار ظلم الدول المتوالية على دست الحـكم على اختلافها وخروجها عن جادة الحق :

وكم دولة للجور من قبل هذه مضت وانقضت عنا بغير سلام! (٢)

وقد أصبح غرضاً مهماً من أغراض (المدح) أن يوصف الخليفة بالعدل والقضاء على الفتن . قال :

لقد شد ملك بني هاشم وأبدله بالفساد الصـــلاحا
إمام أعاد الهـدى عدله ولاقى به المرتجون الصلاحا (٣)

وقد اعتلى الوزارة من لم يكن بمستحق لهذا المنصب المهم والوزير هو الذي أصبح في هذه الفترة واسطة بين الخليفة والشعب بل أصبح في الحقيقة هو الخليفه . وكان هذا المنصب نموذجا للمظالم والاعتداءات ولذا نوه ابن المعتز حين مدح أحدهم :

لقد عمّر الله الوزارة باسمه ورد اليها أهلها بعد اقفار

«١» و «٢» ص ٢٠٠

«٣» ص ١٣٤

وكانت زماناً لا يقر قرارها فلاقت نصاباً ثابتاً غير خوار (١)

وانتشر هذا الفساد من الأفراد الى الجماعات ومن الحكام الى المحكومين وانتصر الفساد وكثر الشر وسادت المجتمع فوضى اجتماعية ويصور ذلك قوله:

اني أرى شراً تأجج ناره وغدير مملكة كثير الوالغ

والناس قد ركبوا مطايا باطل والحق وسطهم برحل فارغ ! (٢)

ترى ماذا يكون أثر مثل هذه البيئة في نفس الشاعر !

الحقيقة التي يجب أن تقرر والتي تسندها النصوص الأدبية هي ان شعر الشاعر اصطبغ الكثير منه بالتشاؤم والشك الكثير المملوء بالحذر من الدنيا وبذلك كون له فلسفة ازاء هذا المجتمع وهذه البيئة: هي ان الدنيا فانية سريعة الافناء وما يبقى منها إلا روايات وأخبار . فماذا يفعله المرء في مثل هذا الموقف إذن ؟ هناك مسلكان على الانسان أن يسلك أحدهما طريق الزهد وثانيهما طريق المجون واللذة وسلك الأخير ابن المعتز . وكان يؤمن ان على المرء أن يأخذ من الدنيا كل ماتعطيه إياه من لذة يقتنصها اقتناصاً . قال :

أرقت جميع الليل للبارق الذي ترفع من نجد فشاق إلى نجد

أحل بدار اللهو حيث لقيتها وأهزل باللذات والدهر في جد

«١» ص ١٤٠

«٢» ص ٢٧٥

ألا إنما الدنيا بلاغ لغاية   فاما الى غي واما الى رشد(١)

وقد بلغ به الشك والحث على اجتناء اللذة حداً لا توقفه فكرة الموت والمعاد ولا تحده :

يا صاح لا تخدعك ساعة غفلة   عن لذة أو فكرة لمعاد
واشرب على طيب الزمان فقد حدا   بالصيف من ايلول أسرع حاد(٢)

وقال :

ألا عللاني إنما العيش تعليل   وما لحياة بعدها ميتة طول
دعاني من الدنيا أنل من نعيمها   فاني عنها بعد ذلك مشغول
خذا لذة من ساعة مستعارة   فليس لتعويق الحوادث تمثيل(٣)

وقال :

نخذ بحظ من الدنيا فلذتها   تفنى وتبقى روايات وأخبار(٤)

وكانت تلك البيئة متقلبة متغيرة وكان ناسها مثلها متغيرون ترتفع بأحدهم الحال فينسى من كان معه في البؤس ويكون لذلك صحباً جدداً واخواناً وترق حاله فيتفرق عنه أخدانه وان « الخليل واخلاصه » والناس ونكرانهم للجميل مرسوم على كثير من صفحات

«١» ص ٢٦٦

«٢» ص ٢١٩

«٣» ص ٢٤٤

«٤» ص ٣١٥

ديوان ابن المعتز :

رويدك ان الدهر ما قد علمته   وليس لنا في حكمه كل مارضى
ولا بدأن يصغى الى البؤس جانب الـ   ـنعيم ويقضي منعه ثم لا يقضى

ولعل ما يصيب المعروفين من الناس من الأذى أكثر ، ولعل الخاملين كانوا أهدأ بالا وأشد راحة من غيرهم من الذين كانوا قوّامين على شؤون الناس وشؤون معاشهم وكان ابن المعتز من أهل الملك معروفاً . فكان يعرف مالا يعرفه غيره من العامة ولهذا نرى أثر هذه الأحداث واضحاً في شعره وقد تبلغ به الحال انه يتمنى لو يبيع حسبه ـ وهو الذي يفاخر به كثيراً ـ بأمن جهول ! يا للزمن القاسي ! :

من يشتري حسبي بأمن خمول   من يشتري أدبي بحظ جهول
ساء الزمان وأرجعتك صروفه   وعسى الزمان يسر بعد قليل «١»

رأينا العوامل التي سببت هذا التشاؤم الظاهر في روح ابن المعتز والضجر والخوف من المجهول والحث على طلب اللذة بأسرع مايمكن وسوف نرى أثر ذلك في دعوته الى الصبوح دون الغبوق وربما كان لهذا الاثر النفسي في ذلك يداً حيث يشعر بالاطمئنان النفسي ويكون توقع المكروه أقل وحدوث الشر نادر قليل . وشيء آخر يمكن أن أضيفه ، وأراه عاملا من عوامل التشاؤم والقلق النفسي في نفس ابن

«١» ص ٣٤٠

المعتز . كان المجتمع قد وصل فى هذه الفترة الى تحلل خلقي غريب ، كثر فيه الغلمان وكثرت الجوارى وقد لا نبالغ اذا قلنا ان البغاء بأنواعه قد انتشر وأصبح علنياً لايخشى من الاتصاف به .

وكان أثر الدين لا يزال قويا أو على الأقل لا زال المؤمنون يعرفون ما يجب أن يتصف به المسلم الحق من أخلاق ومن اجتناب الآثام واقتراف المفاسد الخلقية .

كان هذا النزاع بين واجب الدين القاسي وبين واقع الحياة الشهية نزاعاً قوياً دامياً وكانت الدنيا بواقعها تتغلب على الدين بمثاليته ولكن كان الدين يترك في تكوين النفوس المغلوبة أثراً من جراحه دامياً هو ألم الضمير والشعور بارتكاب الذنوب التي يعاقب عليها في الدنيا والآخرة . وقد ترك مثل هذا النزاع أثره في ديوان الشاعر قال :

أهلكت ديني بدور طالما ت فى دجى الشعر ووردفى خدود
وارتواء من مدام فى شفاه واعتناق لغصون فى قدود «١»

وقال :

أفسد ديني بدر فى الطرف منه سحر
والقلب منه صخر كأن فاه خمر «٢»

«١» ص ٦٧

«٢» ص ١٠٣

ان الظاهر ان ابن المعتز طلب الحب الصحيح فلم يجده وقد وقع حقاً على التفسير النفسي للحب وعرف انه حاجة نفسية ملحة لا تشبعها ثروة ولا جاه ولا سلطان ولا دين وأدرك ذلك جلياً قال :

وقالوا تصبر ! قلت كيف وإنما اريد الهوى حتى ألذ وأنعما
ويأخذ لحظ العين ممن أحبـه شفاه وألقى زائراً ومسلما
ولو كنت ممن يتقي الناس في الهوى لكان تقى ربي أعف وأكرما (١)

لقد كان يريد الحب « حتى يلذ وينعم !! » .

ولـكن مع ذلك فالظاهر انه لم يجد هذا الحب الحقيقي حتى اذا غفلنا عن كل مبالغة تصور حرمانه فان الـكثير من المبالغة في القول تذهب الى هذا العصر إلا أن كثرة الترداد وشدة الحسرة البينة من خلال سطوره تدل دلالة قاطعة على ذلك كما يدل على العكس شعر عمر بن أبي ربيعة مثلا مع محاولة طرد كل ما نرى ان الشاعر قد اختلقه اختلاقاً . فانا نرى من خلال شعر عمر انتصاراً نفسياً كبيراً في ميدان الحب والغرام واذا جاز أن نعلل ذلك لجمال عمر وغناه وجاهه فهنا نحن نقف حيارى أيضاً . فالرجـل من بيت مالك ورجل ثري ويزعم في مواطن من ديوانه ان شبابه كان آسراً ولـكن الظاهر انه كان يحب

---

(١) ص ١١٦

من لم يتمكن أن يصل اليه . قال :

أقول وقد طال ليل الهموم وقاسيت حزن فؤاد سقيم
عسى الشمس قد مسخت كوكباً ومذ طلعت فى عداد النجوم (١)

ونراه هنا يصف « الحب » ، لا كل حب ولكن الحب الذى قاساه هو :

خليلي بالله الذي أنتما له فما « الحب » إلا أنة وبكاء
يعللني بالوعد أدنين وقتـــه وهيهات نيل بعدها وعطاء
فدمن على منعي ودمت مطالباً ولا شيء إلا موعـد ورجاء

ولعل كثيراً من حرمانه كان بعدما شاب :

أيا سدرة الوادى على المشرع العذب
سقاك حيا حي الثرى ميت الجدب
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكي الهوى
اليك وإن طال الطريق على صحبي
وقفت بها والصبح ينتهب الدجى
بأصواته والنجم يركض في الغرب
أصانع أطراف الدمـــوع فمقلتي
موقرة بالدمـــع غرباً على غرب

«١» ص ١١٦

وهل هي إلا حاجة قضيت لنا
ويوم تحملناه فى طاعة الحب

تبدلت « شيباً » بالشباب فان تطر
شياطين لذاتي يقمن على قرب

ونرى لوعته تكون بالنسبة للغلمان :

ومن حسرة الدنيا هواك لباخل بعيد من العتبي ضنين بموعد
بجيء مجيء الفيء كل عشية ويرجع لايعطي بقول ولا يد(١)

ونرى لوعة الحرمان بالنسبة للنساء أيضاً :

قسمت في الهوى البخوت فيا بختي في حبها عدمتك بختا
لا تلمني يا صاح فى مكتو مة نفسي لها الفداء وانتا (٢)

ولكنه هل يحب امرأة بعينها ؟ ومن هي ؟

يتردد اسم « شريرة » فى شعره وقد يرد مرخماً فيكون « شر » ونحن لا نعرف عن « شر » هذه شيئاً أبداً إلا اشارة واحدة سترد بعد قليل ولكن الظاهر انها جارية لغيره أو لزوجه أو ربما انها امرأة من شريفات المجتمع في بغداد أحبها ولم تتزوجه بل تزوجت غيره ولكنه مع ذلك بقي على حبها قال :

ألم تك قد منيتني أيها القلب اذا فارقت (شر) فانك لا تصبو

---

(١) ص ٩٤

(٢) ص ٨٦ — ٨٧

فقال ظننت الحب يغلبه الفتى   هو الموت ! لكن قيل لي انه الحب !!(١

والظاهر ان حبه هذا أفقده زوجته إذ ضاقت بنزوات حبه المتكررة فقال غير آسف :

ونقبت عرسي بالطلاق مصمماً   وكانت حصاة بين رجلي وأخمصي
فأبهت عذالي وفات الذى مضى   وهنئت عيشاً بعد عيش منغص

وقال فى شر هذه :

قــل لشر بالله ياهم نفسي   زوديني قبــل الحوادث زادا
قد شكا الوعد منك حبصاً طويلا   فاحللي عنــه يا شرير الصفادا

وكل ما نعرفه عن (شريرة) هذه انها تزوجت من بقال وهذا يؤيد انها من الاماء :

أقول وقدضاقت بأحزانها نفسى   ألا رب تطليق قريب من العرس
لئن صرت للبقال يا شر زوجة   فلا عجب قد يربض الكلب في الشمس

وهو في الحقيقة من الشعراء الذين بكوا الشباب كما بكاه الشريف الرضي ويدل شعره على ان شبابه كان سعيداً :

مضى فمضى طيب الحياة وأسخطت   خلائق دنيا كنت منهن راضيا

وقد ييأس مرة ويأمل اخرى فينطلقه اليأس بمثل هذا :

عهدان ماتا للأوانس والهوى   فاندبها لا تندبن طويلا !

وربما يكون لهذا النوح والبكاء على الحب الصادق ولحرمانه

....

(١) ص ٨٥

وجوعه النفسي أثر فيما بدا من حزن ومن تشاؤم أيضاً .

نصبه . بيته . موقفه من العلويين

من هو ابن المعتز ؟

قال المؤرخون : هو أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي .

ان الديوان يعطينا أكثر مما أعطانا إياه المؤرخون . يرينا شعره اعتزازه بنسبه وانه من آل الرسول :

أيها السائل عن الحسب الأطيب ما فوقه لخالق مزيد
نحن (آل الرسول) والعترة الحق وأهل القربى فماذا تريد (١)

ويقول في قومه :

اني من القوم الذين بهم فخرت قريش على بني كعب (٢)

وهو يرى في نفسه انه من قوم غير القوم وانه من بيت غير بيوت الناس فهو فيه تتمثل النزعة التي قرأنا عنها في خطبة المنصور التي قال فيها :

« أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه

---

(١) ص ٣٠

(٢) ص ١٠

وتسديده وتأييده وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه باذنه فارغبوا الى الله وسلوه ... أن يوفقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم (١) » .

ويقول عن مقام بيته :

بان مكان بيتي في المعالي مكان الملك في خرز النظام (٢)

وهو في شعره ينظر الى ان بيته أشرف البيوت ونسبه هو غاية الشرف وليس فى الناس من يضارعه حتى انه ليأنف أحياناً أن يزوج فتاة له فى غير أهل بيته لأنه لايجد عذراً يعتذر به الى النسب الكريم:

وبكر قلت موتي قبل بعل وان اثرى وعد من الصميم
أأمزج باللئام دمي ولحمي فما عذري على النسب الكريم

وكأنه جاهلي فى الصميم يدين بالوأد !

وهو فى وصفه نفسه تنعكس فيه نفس الصفات التي يطلقها على نسبه فهو يرى في نفسه انه جمع كل صفة حميدة عرفت لذلك الزمن فالفروسية هو سيدها والكرم والحلم والفخر وطلب اللذة والتمتع بالنساء وشرب الخمر وقد يجمع كل هذه الصفات في قصيدة واحدة قال :

وكل الذي سر الفتى قد أصبته وساعدني فيه أخير وأول

«١» العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٠

«٢» ديوان أمير المؤمنين ابن المعتز العباسي ص ٦٣

فمن أي شيء يا ابنة القوم احتوي على مهجتي أو أي شيء اؤمل (١)

وكان يعتقد فى نفسه أكثر مما أثبتته الحوادث : قال :

فان مت فانعيني الى المجد والتقى ولا تبكي دمعاً اذا قام نائح
وقولي هوى عرش المكارم والعلا وعطل ميزان من العلم راجح (٢)

وما دمنا في ذكر كثرة تعديده الصفات في قصيدة واحدة نتمكن أن نضع قاعدة للكثير من شعر ابن المعتز بأنه ميال الى التركيز الشديد في القصيدة الواحدة وقد تصلح فكرة من أفكار القصيدة أن تكون قصيدة في ذاتها ولعل كثرة التشبيه فى شعره راجع الى هذا الميل فى التركيز فهو يحاول أن يجمع الصور الكثيرة في قليل من الالفاظ فيشبه ثم يترك ذلك الى فكرة اخرى ويحاول أن يقربها فيشبه مرة أخرى وهكذا . ولعل كثرة فخره بنفسه ونسبة الصفات الكثيرة الى ذاته راجعة الى أثر عصره وتعدد الفضائل والعلوم فيه وأكثرهم فضلا من كان أغزر علماً وأكثر جمعاً لهذه الفضائل والصفات.

قال فى مدح نفسه في الكرم :

وليلة قر قـــد اهنت كريمها ولم يك بي شح على الجود غلابا

وقال في فروسيته وخروجه للصيد :

وقد اغتدي من شأن نفسى سابح جواد كميت اللون يعجب اعجابا

---

(١) ص ٥٩

(٢) ص ٢٩

وقال في اللهو :

فقد كان دأبي جنة اللهو والصبا وما زلت باللذات والعيش لعابا

وقال في الحب :

وليلة حب قد أطمت غويها وزرت على حد من السيف أحبابا

وقال في شرب الخمر :

وكأس تلقيت الصباح بشربها وأسقيتها شرباً كراماً وأصحابا

وقال في شجاعته وقطعه الصحراء :

وديمومة أدرجتها بشملة تشكى إلي عض نسع واقتابا

ونجد في القصيدة كثرة التأكيد على الذات مما يدل لنا على كثرة غروره بنفسه وبذهبه على ما كان عليه عصره من ضعف وانحلال وعلى ما كان عليه الخلفاء من ضعف مزري بهيبتهم .

ولعل من المستحسن أن نبحث هنا موقفه من (العلويين) .

تحامل الكثير من الذين حكموا على شعره لأنه هجا العلويين وقد غض بعض النقاد القدماء من جمال شعره لهذه التهمة وقد رد على ذلك صاحب كتاب الاغاني (ج ٣ ص ١٣٤) كما ان الصولي في (الأوراق) دافع دفاعاً مجيداً عن الشاعر ولكنه حاول أن يغالط في تخليص ابن المعتز من تهمة الهجاء . فهناك شعر يشم منه روح الكراهية منه للعلويين فكيف يفسره الصولي ؟ قال : « انه قاله لا ناس كانوا يحملون اليه شعراً على انه من بعض العلويين فيرد عليه فلما عرف ذلك ندم

كثيراً وتاب وأخذ في مدح الامام وحلف أن يقول باقي عمره في هذا الفن » (١) .

وهناك جملة وردت في الاوراق عرضاً وما أظن ان الصولي قصدها لذاتها إلا انها تحل موقفه من العلويين حلا موفقاً جداً قال عنه واصفاً إياه :

« وكان رأيه مخالفاً رأي العامة إلا انه كان يسلم على أصحاب رسول الله «ص» لايذكر له أحد منهم إلا عدد فضائله وناضل عنه ونصره إلا انه كان يقدم بني هاشم » (٢) .

فاذا عرفنا انه كان مخالفاً في رأيه رأي العامة ، واذا عرفنا ذلك جيداً عرفنا موقفه من العلويين .

كان العامة والكثير من عامة الناس يعتقدون في آل البيت اعتقادات غريبة جداً ، اعتقادات تقربهم من الاله وتبعدهم عن البشر فقالوا ان فيهم روحاً إلهية حلت فيهم وزعمت كثير من الفرق بأن الامام علي بن أبي طالب فيه تجسم الاله وهناك من المعتدلين من الناس من كان يرى ان علياً وأولاده هم أحق بالخلافة لأنهم اناس مقربون الى الرسول أقرباء منه فهم أبناء ابنته وان الأوائل من أصحاب الاغراق هم الذين كانوا يثيرون الفتن ويثيرون الاضطرابات

«١» الصولي : الاوراق : اشعار اولاد الخلفاء ص ١٠٨ .

«٢» نفس المصدر ص ١٠٧ .

وهم مع الآخرين حاربهم ابن المعتز وضاق بهم ذرعاً .

وهناك جماعة من الأئمة الأفاضل من عقلاء العلويين لم نر أن ابن المعتز قد مسهم بقول أو جرح لهم عرضاً كما انه كان شديد التكريم للامام وللسلف الصالح كله يدل عليه شعره ويدل عليه القسم الاخير من النص : «كان يسلم على أصحاب رسول الله لا يذكر له أحد منهم إلا عدد فضائله .. ! » وبقي لنا أن نتحقق من صحة هذا الرأى ونتتبعه فى شعره لنرى مدى صدقه . قال ابن المعتز عن هؤلاء الذين ناصروا العلويين ودعوا اليهم من الغالين وهم الذين صب عليهم جام غضبه :

لقد قال الروافض فى علي مقالا جامعاً كفراً وموقا
زنادقة أرادت كسب مال من الجهال فاتخذته سوقا
وأشهد انه منهم بري وكان بأن يقتلهم خليقا
كما كذبوا عليه وهو حي فأطعم ناره منهم فريقا (١)

وقال فى منظومته التي نظمها فى تاريخ المعتضد :

واستمع الآن حديث الكوفه مدينة بعينها معروفه
كثيرة الاديان والأئمه وهمها تشتيت أمر الامه (٢)
فقد بقوا في دينهم حيارى فلا يهود هم ولا نصارى

«١» ص ١٩٦

«٢» ص ١٧٢

والمعلمون منهم براء رافضة ودينهم هباء
فبعضهم قد جحد الرسولا وغلطوا في فعله جبريلا
وبعضهم قال « علي ربنا » وحسبنا ذلك ديناً حسبنا (١)

إذاً لقد نقم ابن المعتز لذلك وهو العالم المثقف أن يرى الامور تقاس بغير ميزانها ولكن نقمته على الغلاة لم ينقصه تقديره واحترامه لعلي ولم ينس انه لحمه ودمه . قال :

رأيت الحجيج فقال العداة سب علياً وبيت النبي
أأكل لحمي وأحسو دمي فيا قوم للعجب الأعجب
علي يظنون بي بغضه فهلا سوى الكفر ظنوه بي (٢)

وقال في عطفه على الطالبيين :

بني عمنا عودوا نعد لمودة فانا الى الحسنى سراع التعطف
وإلا فاني لا أزال عليكم محالف أحزان كثير التلهف
لقد بلغ الشيطان من آل هاشم مبالغه من قبل في آل يوسف (٣)

هذا هو موقفه من العلويين ، ومن الامام .

أما موقفه من الخلافة وطلب العلويين لها فهذا شيء آخر .

هنا نرى نظرته نظرة الحزب العباسي تماماً فهو يرى ان العباسيين

«١» ص ١٧٣

«٢» ص ١٢٩

«٣» ص ٢٧٨

أحق بالخلافة لأنهم أبناء العم والعلويين أبناء البنت والعم يورّث ويرث والبنت لا تورّث ولا ترث ما دام العم موجوداً قال :

لكم رحم يا بني بنته ولكن بنو العم أولى بها !!
ونحن ورثنا ثياب النبي فلم تجذبون بأهدابها

وقال من هذه القصيدة :

دعوا الأسد تفرس ثم اشبعوا بما تدع الاسد في غابها
قتلنا امية في دارها ونحن أحق بأسلابها
وكم عصبة قد سقت منكم الـ خلافة صاباً بأكوابها
اذا ما دنوتم تلقتكم زبوناً وقرت بحلابها
ولما أبى الله أن تملكوا نهضنا اليها وقمنا بها

وهو في شعره يصور الحجة الاخرى التي احتج بها المنصور حين كتب الى محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسن بن علي بن ابي طالب الثائر عليه في المدينة على ما ورد في الطبري بأنهم تُركوا وامية زمناً فلم ينتصروا وكان نصيبهم القتل والتشريد حتى نهضوا لها :

أبى الله الا ماترون فما لكم عتاب على الاقدار يا آل طالب !
تركناكم حيناً فهلا أخذتم تراث النبي بالقنا والقواضب
زمان بني حرب ومروان ممسكوا أعنة ملك جائر الحكم غاصب
ألا ربّ يوم قد كسوكم عمائما من الضرب في الهامات حمر الذوائب
فلما أراقوا بالسيوف دماءكم أبينا فلم نملك حنين الاقارب

فحين أخذنا ثاركم من عدوكم   قعدتم لنا تورون نار الحباحب
وحزنا التي أعيتكم قد علمتم   فما ذنبنا هل قاتل مثل سالب
عطية ملك قد حبانا بفضله   وقدره ربٌ جزيل المواهب
وليس يريد الناس ان تملكوهم   فلا تثبوا فيهم وثوب الجنادب
واياكم اياكم وحذار من   ضراغمة فى الغاب حمر المخالب
الا انها الحرب التي قد علمتم   وجربتم والعلم عند التجارب(١)

ويدور شعره على هـــذا وأمثاله فهو في شعره يقارن بين أبي طالب والعباس :

أأبو طالب كمثل أبي الفضل   أما منكم بهذا علـــيم
سائلو مالكا ورضوان عن ذا   أين هذا واين هذا مقيم (٢)

وفى هذا ولا شك سوء أدب وتجاوز على والد النبي أيضاً وتحـد للقرآن في سورة التكاثر .

ويقول في شعره مرة اخرى ناصحاً العباسيين أن يشدوا بايديهم على ميراثهم ويشير عليهم بالقسوة فى الذي يطمع في ملكهم :

شدوا أكفكم على ميراثكم   فالحق أعطاكم خلافة أحمد
ومتى يرمها الراغمون فبادروا   هاماتهم حصداً بكل مهند (٣)

---

(١) ص ٢٠ ـ ٢١

(٢) ص ٦٥

(٣) ص ٣٣

ويفخر بانه لولاهم لضاع « دم بالطف مجان » (١)

ويعيرهم بعدم الوفاء لانهم رفعوا عنهم أذى امية الا أنه يقسو عليهم كثيراً :

بنو العم لا بل هم بنو الغم والاذى

وأعوان دهري ان تظلمت من دهري

وغاضهم المجد الذي لا يناله لئيم ولا وان ضعيف عن الوتر

فدونكم الفعل الذي أنا فاعل فانكم مثلي اذاً ولكم نخري

. . . .

ونحن رفعنا سيف مروان عنكم فهل لكم يا آل أحمد في الشكر

أبو الفضل أولى الناس بالفضل كلهم تعالوا نحاكمكم الى البيت والحجر

وأخيراً يعرض عليهم بيعة المأمون للرضا ويريهم منها صورة من صور كرمهم وبانهم لا يحرصون على الخلافة حرص العلويين ولكن الخلافة عادت هي فرجعت اليهم :

وأعطاكم المأمون عهد خلافة لنا حقها لكنه جاد بالدنيا

. . . .

فمات الرضا من بعد ماقد علمتم ولاذت بنا من بعده مرة اخرى

دعونا ودنيانا التي كانت بنا كما قد تركنا كم ودنيا كم الاولى

فالرجل إذن قد صدر عما سمع وربي عليه في بيته فلم يؤاخذ وحده؟

---

(١) ص ٧١

ولم يؤاخذ أدبه على عقيدته ! ومتى كان الدين وكانت العقيدة مقياساً لأدب كاتب أو شاعر ؟ !

شعـــره :

ومن النقاد الكبار الذين اعجب بهم ابو الفرج الاصفهاني مؤلف كتاب الأغاني فالرجل على مايظهر إستقى من جميع ينابيع العلوم والآداب فى عصره وبذلك أصبحت ثقافته خليط عجيب من كل الفنون والآداب والعلوم وكان قلبه كذلك كعقله كبيراً لم يتحزب على رجل مها اختلفت آراؤه السياسية عنه ولم يتحزب لرجل مها اتفقت آرائها ولم يصدق كل ماينقل عن الناس ثم هو بنفسه يتلمس مواضع النقد .

ويثبت أبو الفرج هنا فقرة من فقرات النقد الحر أرى من المستحسن أن نقرأها قبل ان نمضي نقداً فى شعر ابن المعتز مفصلين فيه القول لنتخذ من قوله مايفيدنا في إنصاف الشاعر الذي يحس قارىء الاغاني انه ظلم في وقت كانت فيه المقاييس مختلفة . فقد يقاس أدب انسان بالنسبة الى عقيدته أو مذهبه أو دينه أو سيرته كما فعل ذلك بابي تمام قال :

« وشعره وان كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فان فيه أشياء ظريفة من أشعار الملوك . . ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية فليس يمكن واصفاً لصبوح فى مجلس شكل ظريف بين ندامى وقينـة وعلى ميادين النور والبنفسج والنرجس ومنضود

من أمثال ذلك الى غير ماذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل حضرى الى جعد الكلام ووحشيه والى وصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقـــة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا اذا عدل من ذلك واحسن قيل له مسيء ولا ان يغمط حقه كله إذا حسن الكثير وتوسط فى البعض وقصر فى اليسير وينسب الى التقصير في الجميع لنشر القابح وطي المحاسن فلو شاء ان يفعل هذا كل أحد ممن تقدم لوجده مساغا ولو أن قائلا أراد الطعن على صدور الشعراء لقد رأى ان يطعن على الاعشى يقول : « فأصاب حبة قلبه وطحالها » ومثال هذه كثيرة وانما على الانسان ان يحفظ من الشيء أحسنه ويلقي مالم يستحسنه فليس ماخوذاً به ولكن أقواماً أرادوا أن يرفعوا انفسهم الوضيعة . » (١)

فهذا القول رد على من تحامل من النقاد ورد على انصار القديم من نقاد الادب المعاصر لهم فهم لايرون الشعر شعراً ان لم يفتتح بالوقوف على طلل ويكثر البكاء ويسائل الدار عن احبته ويصف النؤى والاثافي والوتد ! ! ! ولما كان ابن المعتز في بعض شعره قد ترك هذا الاسلوب فعيب عليه ذلك وحاول ابو الفرج ان يدافع عنه واننا نشم رائحـــة مقياس الجرجاني في الوساطة والآمدى في الموازنة في قوله اننا ناخذ

(١) الاغاني ج ٣ ص ١٣٣ ـ ١٣٤

المستحسن من قول كل شاعر مهما كان اسلوب شعره وطريقته «وإنما على الانسان ان يحفظ من الشيء احسنه ويلقي مالم يستحسنه فليس ماخوذاً به» .

واختلف المقياس الآن فنحن سنأخذ ابن المعتز فيما سلك فيه سبيل الجاهليين وهو كثير في شعره . فقد ابتدأ في شعره بالوقوف على طلل وركب الناقة ! ـ وفي شعره اشارات انه ما ترك بغداد ـ وقال انه قطع الهامه والبيد وماالبه ! والتعليل الوحيد لهذا هو التقليد واستيحاء أدب الجاهلية والاسلاميين الأول . وعند طرقه للفنون الشعرية يبدأ بذكر الأطلال ثم يسير في غرضه :

يادار اين ظباؤك اللعس قد كان في انسها انس
اين البدور على غصون نقاً من تحتهن خلاخل خرس

ثم ينتقل الى الهجاء :

ما ان يمر لاهلها نسب الا وفيه عليهم لبس
في كل يوم ذر شارقه في غرس بعضهم لهم غرس(١)

فهو حتى في تشبيهه هنا يستعير تشبيهات الجاهليين .

« فالبدور ... على غصون . . في نقا ... ! » تشبيه جاهلي !

وقد أولع بوصف الناقة والفلاة (ص ٢٣) وقال :

ولرب مهلكة يحار بها القطا مسجورة بالشمس خرق مجهل

---

(١) ص ١٩١

خلفتها بشملة تطأ الدجى مرتاعة الحركات حلس عيطل

ووصف الفرس كثيراً وأكثر من وصف الفرس فى مواطن الفخر ولو وصفها فى مواقف الصبر لكان ذلك أعذر إلا انه اتبع اسلوب الجاهليين في الابتداء بوصف الناقة عند السلوك الى غرض فقلدهم هو واستبدل الناقة أحياناً بالفرس :

وكم حضر الهيجاء في ناصح الشظا تكامل في أسنانه فهو قارح

له عنق يغتال طول عنانه وصدر اذا أعطيته الجري سابح

اذا مال في أعطافه قات شارب عناه بتصريف المدامة سابح (١)

إذاً فقد سلك هو سبيل الجاهليين في كثير من شعره فلم يبتدع وإنما قلد . وهذا التقليد الذي كان يراه بعض القدامى حسناً في شعر المحدثين كامثال ابن المعتز نراه نحن قبيحاً فى شعره حيث يقف الشاعر عندما وقف الجاهليون عنده على اختلاف الزمنين واختلاف البيئتين . ولكن لم يعدم الشاعر من فلتات ثار بها على تقليد الجاهليين وأظنه كان متأثراً في ذلك بأبي نواس وقالها فى فورة من فورات النشاط والتأثر بالحياة الحديثة المترفة . قال :

اف من وصف منزل بعكاظ فحومل

غير الريح رسمه بجنوب وشمأل (٢)

(١) ص ٢٩

(٢) ص ٢٤١

وقال :

أكثرت يا عاذلي من العذل ... اني عن العاذلين في شغل
أحسن من وقفة على طلل ... ومن بكاء في اثر محتمل
كأس مدام حظيت فضلتها ... كف حبيب والفعل من قبلي
في مجلس حثت الكؤوس به ... فالقوم من مائل ومنجدل (١)

وقال :

لا تبك للظاعنين والعيس ... ومنزل ظل غير مأنوس
واشرب عقاراً قد عتقت حقباً ... من عهد عاد بالوعد محروس
من رام في تركي المدام كمن ... يكتب بالماء في القراطيس (٢)

الخمر في شعر ابن المعتز

ولعل من الطريف المفيد للتاريخ أن يبحث الانسان عن علل الأشياء ويتساءل عن سبب منشأها والآن نتساءل هل من الممكن أن نعرف السبب الذي انتشرت لأجله الخمرة هذا الانتشار المروع في العصر العباسي حيث صار الكلام عنها وعن شربها لا يخيف ولا يحذره الناس ولا يتجنبونه وصدر عن اناس يسوسون الناس ويقيمون لهم امور دينهم كابن المعتز ؟!

(١) ص ٢٤٣

(٢) ص ٢٣٢

ان السبب فيما أعرف عاملان . أحدهما : أثر البيئة السياسية وسوء النظام الاجتماعي وانتشار الاضطرابات والثورات قد ساعد ذلك على هدم كثير من التقاليد كما شجع الناس على الاسراف في الخمر لكيما ينسوا أو يتناسوا أوضاعهم وما هم فيه من ضيق ورعب وخوف وما اليه وتكاد تنتشر الخمرة في المجتمع الذى يتحكم فيه الفقر والشقاء أكثر جداً من البيئة المطمئنة الآمنة الوديعة .

وثانيهما : هو العامل الحضاري . فقد تقدم الناس فى العلوم والآداب وازدادت رقة الناس وكثرت مجالس انسهم وأسسوا لذلك القصور وغرسوا الحدائق والبساتين وأكثروا من الصيد في الأرياف . فقد تمتعوا بكل لذة من لذات الدنيا فلم لا يشربون الخمر وهي سبب من أسباب العبث فليعبثوا بالخمر كما عبثوا بالنساء وتمتعوا بها كما تمتعوا بالغلمان فشربوها في مجالس انسهم . فلم إذن غرسوا ريحانهم ان لم يشربوها ؟!

وقد وصل الذوق فى أواخر العصر العباسي الأول والثاني درجة عظيمة في رقة الطبع والاحساس وقد أنتج هذا العصر كثيراً من النقاد الذوقيين المثقفين ثقافة عالية من دقيقي الاحساس . وخلاصة القول ان اولئك الناس في ذلك العصر على اضطرابه السياسي قد كانوا :

حذقوا لذة الحياة وأغروا   جودهم دهرهم فصار جوادا «١»

«١» ص ٩٤

وقد أمعن الناس فى اللذة والمتعة وزادوا فى أيام عطلهم وأيام انسهم فعطلوا الكتاتيب أيام الجمع والثلاثاء وظهر الخميس قال :

لا تجعلون الثلاثا لاجتماعكم ان الكتاتيب تخلو فى الثلاثاء «١»

أما شرب الخمر للتخلص من الهموم فقد أشار اليها ابن المعتز اشارات متفرقة نتمكن أن نجمعها لتكون رأياً :

لا تتبع النفس شيئاً فات مطلبه واشرب ثلاثاً تجد في همه فرجا «٢»

وقال :

الموت أولى للفتى من أن يرى ظالع دهر كلما شاء انقلب
وصاحب نبهني بكاسه والفجر قد لاح سناه وثقب
لا عذر لي فى سمتي ولمتي شيان من شيب وشعر لم يشب
لأي غاياتي أجري بعدما رأيت أترابي وقد صاروا ترب «٣»

وقال :

يا من يفندني فى اللهو والطرب دع ماتراه وخذ رأيي لخصبك بي
ورب مثلك قد ضاعت نصيحته ولم يطق ودّ ذى رأي ولا أدب
وقد يباكرني الساقي فأشربها راحاً تريح من الأحزان والكرب «٤»

«١» ص ١٨١

«٢» ص ٩١

«٣» ص ١٧

«٤» ص ٢١٠

الذي أراه في ذلك انه قلد سبيل من سبق في تشبيهات الخمر وقلد أكثر ما قلد أبا نواس فتغلب للخمر في شعره صفتان « لونها الأحمر » ويشبهه « بالنار » ونشاطها وقوتها ويشبهه بالجند الذين يثبون :

وكأن الماء إذ مزجت ملهج في كاسها لهبا
فأدارت في جوانبهـا حبباً تغري به حببا

وقال فى وثوبها :

قهوة بنت دنان عتقت خمسين عاما
خلتها في البيت جنداً صفقوا حولي قياما «١»

وقال :

كأن نميراً بها وماش طه‍ين وثب
يقطـع فى كأسها رؤوس مداري الذهب«٢»

ويصف مجالسها كثيراً ويصف غلمانها والندمان . ويصف أثر الخمر فيهم قال :

ومقرطق يسعى الى النـدماء بعقيقـة في درة بيضاء
والبدر فى افق السماء كدرهم ملقى على ديباجـة زرقاء

«١» ص ٢٤٧

«٢» ص ٢١١

كم ليـــلة قد سرني بمبيته عندي بلا خوف من الرقباء
ومهفهف عقد الشراب لسانه فحديثـه بالرمز والايمــاء
حركته بيدي وقلت له انتبه يا فرحـــة الخلطاء والندماء
فأجابني والسكر يخفض صوته بتلجلج كتلجلج الفـــأفاء
اني لأفهـم ما تقول وإنما غلبت علي سـلافة الصهباء
دعني أفيق من الخمار الى غد وافعل بعبدك ماتشا مولائي «١»

ويكاد ابن المعتز ينفرد في كثرة دفاعه عن شرب الصبوح وذم الغبوق بحيث يؤلف كتابا في ذم الغبوق ويترك شعراً كثيراً فى ديوانه في مدح الصبوح وهناك قطعة كبيرة من الرجز فى مدح الصبوح ووصف وقت شرابها .

ولعل الدافع لهذا هو مناخ العراق الحار وأثره السيء في شارب الخمر اذا ما اشتدت حرارة النهار فيفقده وعيه ونشاطه ويزداد أثر الحر سوءاً على أعصاب السكران كلما ارتفع الحر واشتد ولذا فهو يفضل الشراب منذ وقت الفجر حتى مشرق الشمس حيث لايزال الجو بارداً والضوء يزداد شيئاً فشيئاً فيزداد انشراحهم لجمال الطبيعة وتتفتح الأزهار والرياحين . قال في ارجوزته :

لي صاحب قد لامني وزادا فى تركي الصبوح ثم عادا
وقال لا تشـرب بالنهار وفى ضياء الفجر والأسحار «٢»

«١» ص ٢٠٧ «٢» ص ٣٠٦

وقال :

أعاذل اني لا اعاجل توبة ولست الاقي توبة بأناة
وراح تلقيت الصباح بكاسها وقد سار جيش الصبح في الظلمات «١»

وقال :

شربتها والديك لم ينتبه سكران من نومته طافح
ولاحت الشعرى وجوزاؤها كمثل زج جره رامح «٢»

ويصف جمال الطبيعة عند الصباح وخاصة أيام الربيع !!

قال : « وانظر الى ربيع أقبلت » (ص ٢١٥) .

وقال :

واذا تعرى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس فديت وآذن حبها بممات
فتتوج الزرع السني بسنبل غض الـكمائم أخضر الشعرات
والكمأة الصفراء باد حجمها فبكل أرض موسم لحياة
فكأن أيديهم وقد بلغ الدجى يفحصن في الميقات عن هامات
وتظل غربان الفلا فيما ادعت يأكلن لحم الأرض مبتدرات
والغيث يهدي الدمع كل عشية لغيوم يوم لم يحط بنبات
وترى الرياح اذا مسحن غديره صقلنه ونفين كل قذاة

---

(١) ص ٢٦٣

(٢) ص ٢١٦

ما ان يزال عليه ظبي كارع   كتطلع الحسناء فى المرآة
وسوابح يجدفن فيه بأرجل   سكنت عليه بكثرة الحركات
فتخالهن كروضة في لجة   وكأنما يصفرن من قصبات
ويغرد المكاء فى صحرائه   طرباً لترنيح من النشوات
ياصاح غادي الخندريس فقد بدا   شمراخ صبح لاح فى الظلمات
والريح قد باحت بأسرار الندى   وتنفس الريحان بالجنات (١)

ما أبدع الصورة التي رسمها لصباح من أصابيح الربيع !! وكأنه مصور إستبدل بالريشة قلماً وباللوحة قرطاساً وراح ينقل لنا ماشاهده وكأننا نرى معه مايرى وكأننا نسمع معه مايسمع من أصوات الطيور المغردة والبط الصادح بصورته الرائعة على وجه الغدران وفاق الفنان ذا الريشة بأنه نقل لنا مالا يمكن أن ينقله المصور وما ينقل لنا الفنان من الريح التي : « باحت بأسرار الندى » و « تنفس الريحان بالجنات » فهذه صور عقلية لايصورها الرسام فى صورته !

ولا نراه يشرب الخمر ليلا ولا يرغب فى شربها وان شربها فهو نادم :

أردت الشرب فى القمر   وقطع الليل بالسهر
وقد جمعت ما يلهي   فلم أترك ولم أذر
فدب الغيم معتمداً   فأخفاه عن النظر

(١) ص ٢١٥

فبت أثور من غضب   على الأحداث والقدر (١)

وعلى هذا فهو يفضل أيضاً الشرب أيام الخريف والشتاء حيث يكون الجو بارداً لطيفاً منعشاً على الشرب فى فصل الصيف فما أشد كرهه لآب وما أشد حبه لأيلول . قال :

قد مضى آب صاغراً لعنة الله عليه ولعنة اللاعنينا
وأتانا ايلول وهو ينادي   الصبوح الصبوح ! ياغافلينا (٢)

وقال :

لم يبق فى آب غير يوم   ثم الى الحول لا تراه
يا حصن آب وقد تولى   وكفّ ايلول فى قفاه (٣)

وحدث انه ورد رمضان فى ايلول فقال :

طوّل فى ايلول شهر الصيام   وما قضينا فيـه حق المدام
والله لا أرضى على الدهر أو   يسرق شهر الصوم في كل عام (٤)

وقال فى الشرب فى الشتاء :

هجم الشتاء ونحن بالبيـداء   والقطر بلّ الارض بالأنواء
فاشرب على زهر الرياض يشوبه   زهر الخدود وزهرة الصهباء

(١) ص ٢٢١

(٢) ص ٢٢٣

(٣) ص ٣٠٠

(٤) ص ٢٤٩

من قهوة تنسي الهموم وتبعث الشوق الذي قد ظل في الاحشاء
يخفي الزجاجة لونها وكأنها في الكف قائمة بغير اناء(١)

وهنا موشح ينسب الى ابن المعتز قد أثبته جامع الديوان في ديوانه وهو وان كان في اسلوب ابن المعتز أشبه وتكاد صوره تقارب الصور الموجودة في شعر ابن المعتز لتقارب العصرين العباسي والاندلسي وتعاصرهما الا ان الموشح في زمن ابن المعتز لم يكن قد وجد بعد والموشح مشهور معروف وهو من الموشحات اللطيفة حيث أجاد ناظمه في انتقاء الألفاظ اللطيفة وقد تمكن من رسم كثير من الصور البديعة للنديم والساقي ومطلعه :

أيها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

ونديم همت في غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكى وسقاني أربعاً في أربع (٢)

---

(١) ص ٢٠٧

(٢) ص ٢٣٦

تشبيهات ابن المعتز :

١ ـ تشبيه التقليد

أ ـ الخمر .

نالت الخمرة حظاً وافراً في تشبيهات ابن المعتز وهي تشبيهات قد عرضها في اسلوب آخر ويتميز ابن المعتز في تشبيهاته انه يحاول ان ينقل صوراً للقارىء فيكثر من التشبيهات وفي الحقيقة ان ابن المعتز لم يكثر من التشبيه بصورة تجعلنا نميزه عن غيره . فانك اذا استقريت أي ديوان شعر تتمكن ان تستخرج كثيراً من التشبيهات وابن المعتز نفسه قد تمر له القصيدة والقصيدتان ولا تشبيه فيهما إلا ان الذي أعطاه هذه الشهرة وجعله اماماً للمشبهين شيئان :

الاول : انه سبق الى وصف أشياء معينة من الطبيعة وصفها متقصداً كالبرتقالة والليمونة والنارنجة والثريا والهلال مما جعل علماء البلاغة يحفلون ويهتمون به وينوهون عنه .

والثاني : انه الف كتاب (البديع) ويعتبر أول كتاب في البلاغة وقد جلب هذا الكتاب اليه الانظار وجعل المقتبسين منه من علماء البلاغة يكثرون من الاشارة اليه .

وسنذكر تشبيهات ابن المعتز بالتدريج ونصنفها ونرى مقدار ماجاء به جديداً بالنسبة للادب العربي .

قال في حباب الخمر :

وكأن الحباب اذ مزجوها وردة فوق درة بيضاء
وكأن الذي يشم ثراها كوكباً كفه عليه سماء (١)

وقال :

فلم نزل ليلنا نسقى مشعشعة كأنما الماء يغريها بتصريم
كأن في كأسها والماء يقرعها أكارع النمل او نقش الخواتيم (٢)

وقال :

كأنما حبابها المنثور كواكب في فلك تدور

وقال في لونها :

وكأس كمصباح السماح شربتها على قبلة او موعد بلقاء
أتت دونها الايام حتى كأنها تساقط نور من فتوق سماء
ترى كأسها من ظاهر الكأس ساطعاً عليك ولو غطيتها بغطاء (٣)

وقال :

ومدامة يكسو الزجاج شعاعها كالخيط من ذهب اذا ماسلت
حبست ولم تر غيرها في دنها فتقصرت من نقشها وتحلت (٤)

---

(١) ص ٢٠٦

(٢) ص ٢٤٧

(٣) ص ٢٠٦

(٤) ص ٢١٤.

وقال :

ونافلات تحته الندمان صافية ... كأنه اذ حساها نافخ لهبا (١)

وقال :

ياحسن أحمد غاربا أمس ... بمدامة صفراء كالورس

والصبح حي في مشارفه ... والليل يلفظ آخر النفس

فكأن كفيه تقسم في ... أقداحنا قطعاً من الشمس (٢)

لقد قرأنا هذه التشبيهات . فالخمر كأنها النار أو النور أوالذهب او الشمس والحباب كأنه كواكب تدور في فلك !!

هذا خلاصة لما رأينا في هذه التشبيهات ولا جديد . فكلها قد نجدها في ديوان أي شاعر قال في الخمر شيئاً .

وقد وجدت بعض التشابيه في الخمر قد خرج الرجل فيها عما الفنا من تشبيهاته تلك وحاول أن يجعل من التشبيه اكثر من صورة جامدة لاحياة فيها . حاول ان يشعرك ان المشبه به صورة تتحرك وتدب فيها الحياة . قال :

فاشرب عقاراً كأنها قبس ... قد سبك الدهر تبرها فصفا

تدمي فدام الابريق من دنها ... كأنه راعف وما رعفا (٣)

(١) ص ٢٠٩

(٢) ص ٢٣١

(٣) ص ٢٣٨

وقال :

وشرب سبقتهـــم والصباح في وكره واقع لم يطر
كأنهـــم نثروا بينهم حريقاً فايديهم تستعر (١)

وقال :

يمج ابريقه المزاج كما امتد شهاب في اثر عفـــريت (٢)

وفي هذه التشابيه الثلاثة

« كأنه راعف وما رعفا » و :

« كأنهـــم نثروا بينهم حريقاً فايديهم تستعـــر »

و « كما امتد شهاب في اثر عفريت » كلها صور متحركة تشعرنا ان فيها روحا هذا مع انها تكاد تكون اكثر جدة من تشبيهاته الاخرى الا انها لم تصور ابتداعا أو اختراعا .

وهناك بعض التشبيهات لم تفدنا شيئاً مع انها جميلة في ذاتها إلا انها زادت معرفتنا إبهاماً وإيهاماً .

قال :

وليس للهم الا شرب صافية كأنها دمعة من عين مهجور

فهل دمعة المهجور هي وحدها الصافية والدموع الاخرى كدرة ؟ أو ان لدمعة المهجور صفاء غير صفاء دموع المحزونين الآخرين المبتلين

---

(١) ص ٢٢٨

(٢) ص ٢١٤

بغير الهجر ؟! وقال :

فقد خفيت في صفوها فكأنها   بقايا يقين كاد يدركه الشك

ما لون اليقين ؟

وما لون اليقين حين يدركه الشك ويخالطه ؟

مع هذا فان التشبيهين بديعان جداً وهما أقرب الى نفسي من بواقي تشبيهاته الاخرى !

ب ـ الأطلال والصحراء والناقة والصيف والماء والمطر وباقي ظواهر البيئة الصحراوية :

وقد شبهت هذه المظاهر من البيئة الصحراوية وأكثر الشعراء فيها القول . وقال فيها أيضاً ابن المعتز وشبهها فجاءت تشبيهاته لها مأخوذة من تشبيهاتهم إلا ان روح ابن المعتز فيها بينة تجعلها وكأنها غير ما قال الأوائل ونمر الآن على طائفة منها :

قال في بئر :

حفرتها جوفاء منقورة   في دمث سهل وطيء التراب

تضمن ري الجيش المستقي   كأن دلويه جناحا غراب (١)

وقال في ماء :

وماء كافق الصبح صاف جمامه   رفعت القطا عنه وخفف كلكلا (٢)

(١) ص ٣٠١

(٢) ص ٢٨٠

وقال في غيمة :

جاءت تهادى كالغراب الهائم   ملفوظة مسودة القوادم (١)

وقال فى برق .

كأن الملاء البيض فى يد ناشر   على الافق الغربي ينفضها نفضا (٢)

وقال في مطر :

كأن هاتن وبله   قطن أطير مندفا

وقال في برق :

ثم حدت بها الصبا كأنها   فيها من البرق كأمثال الشهب (٣)

وقال في رعد :

وجلجل رعد من بعيد كأنه   أمير على رأس اليفاع خطيب

ولو نظرنا في أغلب التشبيهات التي أعطاها للبرق والمطر ودلو البئر وكلها أشياء لا تقدره البيئة التي يوجد فيها الماء غزيراً سواء أكان سحابا أم كان ماء فى بئر . فالتشبيهات تشبيهات قديمة فقد أكثر العرب من الكلام فى الماء وصفاته لأن الماء شيء عزيز فى البيئـــة الصحراوية ولعل أكثر تشبيهاته جدة فى هذا الباب قوله :

(١) ص ٣٢٥

(٢) ص ٢٦٩

(٣) ص ١٦

كأن هاتن وبله قطن أطير مندفا !!

أما باقى التشبيهات فلو فتشنا لوجدنا الكثير منها في أدبنا العربي وقد ورد قسم منها بنص اللفظة . قال في الناقة والوقوف على الطلل ووصف المرأة وأثر الحب .

قال في ناقة :

كأن أخفافها والسير ينقلهـا دلاء بئر تدلت بين اشطان
لها زمام اذا أبصرت جولته حسبت فى قبضتي أثناء ثعبان (١)

وقال في الوتد :

لا يشتكي ذل الهوا ن ولا يئن اذا وفى
نصب كحرباء الفلاة مضى الجميع وخلفا (٢)

وقال في فرس :

كأني على حقبا تقدم قارحا كمثل شهاب طار فى الجو مارجه (٣)

وقال :

فكابدنا السرى حتى رأينا غراب الليل مقصوص الجناح (٤)

---

(١) ص ١٨ ـ ١٩

(٢) ص ٢٧٥

(٣) ص ٢٥

(٤) ص ٢٧

وقال :

كأن فؤادي في مخاليب طائر غدا صبح يوم ثم بات على فقد(١)

وهذه التشبيهات بصورة عامة تكاد أن تكون بمجموعها مأخوذة من بيئة بدوية وأكاد أجزم ان الشاعر لم يعش فيها طويلا ان لم أقل ان الشاعر لم يرها . كما ان بعض التشبيهات فيها من الحياة والحركة الشيء الكثير يزيدها جمالا على غيرها كتشبيه أخفاف الابل وأرجلها الطويلة بحبال البئر وان حركة الاحقاف وتحريك الدلاء داخل البئر للامتلاء وحركة سيقان الابل صورة يتخيلها القارىء بعث عليها التشبيه

ومن التشبيهات الاخرى وصفه الحبل بأثناء الثعبان ولا يتثنى الثعبان إلا حينما يتحرك ، ويتموج على الرمال ماشياً أو متعلقاً ، أما قوله :

فيمتد انبوب الجران كأنه من تحت هامته نحيتة ساج

فالتشبيه لا يوحي بالخفة والسرعة وإنما يوحي بالثقل ومتن الرقبة وجود الفرس على الاقل .. وأجاد في تشبيه نفسه راكباً كأنه شهاب طار في الجو مارجه .

٢ — تشبيه الابتكار :

أ ـ ان تشبيهات الابتكار عند ابن المعتز كما ظهر لي من استقصاء

(١) ص ٩٣

أغلبها قسمان : قسم جود فيه واستعمل ما استعمله غيره من مشبهات به ولكنه صاغه بأسلوبه ووضع فيه نفسه فجاء جديداً أو كالجديد فكل العرب رأت الشمس ورأت القمر وكل العرب شبهت الجمال بالقمر والشمس ولكن لننظر الى جمال هذا التشبيه عند ابن المعتز والزيادة البينة التي أضفتها عليه نفسه :

قدك غصن لا شك فيه كما وجهك شمس نهارها جسدك (١)

وأنا ناقل هنا كثيراً من التشبيهات التي أبدع فيها ابن المعتز قال :

وياعائبي والعيب حشو فؤاده تأمل رويداً لست مما احاذره
وكنت كرام كوكباً بحصاته فرد عليه وبله ومواطره (٢)

وقد أكثر العرب وصف الجيش ووصف لمعان السيوف ولكن كيف يصفها ابن المعتز ؟!

لما رأونا فى خميس يلتهب فى شارق يضحك من غير عجب
كأنه صب على الأرض ذهب وقد بدت أسيافنا من القرب(٣)

وقد تختلط التشبيهات فيبين فيها أثر البيئة الجديدة وما كان معروفاً فى البيئة القديمة ـ فكثرة الورد ونثره وتصفيفه وجمعه أشياء لم تعرفها البيئة البدوية . كانوا يرون الورد فى البادية ولكنهم لم

(١) ص ٩٨

(٢) ص ٣٨

(٣) ص ١٥

يكونوا يعملون له أكثر من أن يشبهوا بالأقحوانة شتيت أسنان الحبيبة ولكن بيئة ابن المعتز اهتمت بالورد وتنوع أسمائه ولذا فهو يجيد حيث يصف الثلج بالورد عندما ينثر :

واغرورقت لانسكاب الماء مقلتها جاءت بثلج كورد ابيض نثرا (١)

وقال في زوبعة :

وزوبعة من بنات الريا ح تريك على الأرض شيئاً عجب

تضم الطريد الى نحرها كضم المحب لمن قد أحب (٢)

وقال في تشبيه الشمس وهي تأكل ظلها :

والشمس تأكل ظلها أكل اللظى عيدان حاطب ! (٣)

وقال :

والبدر يأخذه غيم ويتركه كأنه سافر عن وجه ملطوم (٤)

وقد وصف العرب الأشجار كثيراً فقد وصفوا عظمها ووصفوا أوراقها ووصفوا الدوح ووصفوا الشوك ووصفوا السلم وغيره من انواع الشجر ولكن ننظر الى ابن المعتز كيف يصف لنا الشجرة وأي شيء يجلب انتباهه منها :

---

(١) ص ٣١٦

(٢) ص ١٢٨

(٣) ص ٢٢٦

(٤) ص ٢٤٧

كأن عروق الدوح من تحته الثرى   قوى من حبال اعجلت ان تفتلا (١)

وقال :

أهدت الي التي نفسي الفداء لها   الورد نوعين مجموعين فى طبق
كأن أبيضه من فوق أحمره   كواكب اشرقت في حمرة الشفق «٢»

وفي هذا التشبيه ظهر أثر تأثره القديم بالشعر العربي وتشبيهات العرب وظهر أثر البيئة الجديدة أيضاً .

وقال :

وجلنار مثل جمـــر الخد   أو مثل أعراف ديوك الهند
والاقحوان كالثنايا الغـــر   قد صقلت أنوارها بالقطر ! «٣»

وقال فى وصف النجم :

والنجم في الليل البهيم تخاله   عيناً تخالس غفـلة الرقباء
والصبح من تحت الظلام كأنه   شيب بدا في لمة سوداء «٤»

وقال :

أما الظلام فحين رق قميصه   داري بياض الفجر كالسيف الصدي «٥»

«١» ص ٢٨١

«٢» ص ٣٢٢

«٣» ص ٣٠٧

«٤» ص ٣٠٠

«٥» ص ٢٨٩

وقال :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى

نطير غرابا ذا قوادم جون (١)

ان هذه التشبيهات وغيرها كثيرة للمطالع في ديوان ابن المعتز وقد بدت روح الابتداع في طريقة وضعها وسبكها ثانية أو في الاثر الذي تركته البيئة الحضرية في نفسه مضافة الى ما اقتبسه من العرب عن طريق المعرفة والسماع والمشاهدة .

ب ـ وهذا القسم الاخير من التشبيهات هي كل ماجاء به ابن المعتز من جديد أخذ أغلبها من البيئة المتحضرة المترفة بيئة القصور الغنية وبما حوله من حياة . فانت تجد في كل تشبيه من هذه التشبيهات روحه فيه وذوقه الخاص وأثر البيئة الجديدة خاصاً من كل تأثير قديم واذا قيست شاعريته في هذا الباب فانها تقاس ـ كما اعتقد ـ بهذه التشبيهات الجديدة التي ابتكرتها عبقريته الشعرية فتميز بها .

فالعرب مثـــلا شبهوا الثريا واكثر ماجاءت في أوصافهم حينما يضجرون من الليل فيشيرون الى بطء الثريا وكأنها شدت الى وتد أو حبل في صم جندل ولكن ابن المعتز وصف الثريا لامتضجراً من الليل ولكنه كان كثيراً مايستيقظ عند الفجر ليتمتع بجمال الطبيعة الفتية التي لا تزال نائمة ولا تزال النجـــوم ظاهرة ولا تزال الثريا في السماء

---

(١) ص ٢٥٢

فوصفها وصف المحب لها لا وصف المتضجر منها المتبرم بها .

قال في الثريا :

كأن الثريا والظلام يحفها فصوص لجين قد أحاط به سبج (١)

وقال :

وقد لاحت لساريها الثريا كأن نجومها نور الاقاحي

وقال فيها :

وقد لمعت حتى كأن بريقها قوارير فيها زئبق يترجرج (٢)

وقال :

زارني والدجى أحم الحواشي والثريا في الغرب كالعنقود

وقال في ميلانها :

وقد مالت الى الغرب الثريا كما أصغى الى الحس الفروق

وقال :

وكأن الفجر جدول ماء نور الاقحوان في جانبيه

وكأن الهلال نصف سوار والثريا كف يشير اليه

وهناك مجموعة من التشبيهات شبه بها الهلال والنجوم والفجر والليل وانبلاج الصبح . قال :

أهلا بفطر قد أنار هلاله فالآن فاغد الى المدام وبكر

وانظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر (٣)

(١) ص ٣٥

(٢) ص ٣٠٥

(٣) ص ٣١٣

وقال :

وقد بدت فوق الهلال كرته	كهامة الاسود شابت لحيته «١»

وقال :

في ليلة اكل المحاق هلالها	حتى تبدى مثل وقف العاج
والصبح يتلو المشترى فكانه	عريان يمشي في الدجى بسراج

وقال :

انظر الى حسن هلال بدا	يهتك من انواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة	يحصد من زهر الربى نرجسا «٢»

وقال في الفجر :

حين دب الفجر منبلجاً	كدبيب النار في الفحم «٣»

وقال فى ليلة مقمرة :

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة	كأنها فضه ذابت على البلد «٤»

وبلغ من حبه للطبيعة وظواهر الكون حتى أخذ يشبه مايصف بها . قال :

قد أظلم الليل يانديمي	فاقدح لنا النار بالمدام

«١» ص ٣٠٦

«٢» ص ٣٢٠

«٣» ص ٢٤٨

«٤» ص ٢٢٠

كأننا والورى رقود نقبل الشمس في الظلام

وقد وصف الكثير من الفواكه والخضروات وشبهها تشبيهات مختلفة رأى فيها علماء البلاغة الغاية في الجودة مما جلب له الشهـــرة ودعي بإمام المشبهين في البلاغة .

قال في التفاح :

كأنما التفاح لما بدا يرفل في أثوابه الحمر
شهد بماء الورد مستودع في اكر من جامد الخمر «١»

وقال في التين :

يحكي اذا ماصب في أطباقه خياضربن من الحرير الأحمر «٢»

وقال في القثاء :

انظر اليه أنابيباً منضدة من الزمرد خضر مالها ورق

وقال في النارنج :

كأنما النارنج لما بدت صفرته في حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً فاصفر ثم احمر خوف الرقيب«٣»

وقال :

وكأنما النارنج في أغصانه من خالص الذهب الذي لم يخلط

«١» ص ٣١٣

«٢» ص ٣١٤

«٣» ص ٣٠١

كرة رماها الصولجان الى الهوا فتعلقت في جوه لم تسقط «١»

وقال في الليمون :

كأنما الليمون لما بدا للعين في اوراقه الخضر
مداهن من ذهب اطبقت على زكي المسك والخمر (٢)

وقد ظهر في تشبيهاته اثر البيئة النهرية فهو قد عاش في العراق وفي العراق كثر الماء حتى ليكون خطراً احياناً حيث يغرق الناس ويخيفهم قال :

فقل في مكرع عذب وقد وافاه عطشان
وضم لم تحضنه له في الريح اغصان
كما ضم غريق سا بحا والماء طوفان
وما خفنا من الناس وهل في الناس انسان «٣»

وقال في بركة يصف جمالها :

كأن البركة الغناء لما غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الدجى مرآة قين قد انصقلت ومقبضها الخليج(٤)

«١» ص ٣٢١
(٢) ص ٣١٥
(٣) ص ٧١
(٤) ص ٣٠٥

وقال في سفينة :

واركب ظهر الارض أو بطن لجة مهلجة لا تشتكي خبب الصفر
اذا اضطربت تحت الرياح رأيتها كاحشاء منحوت الفؤاد من الذعر
تريك بعذب الماء صفو ترابها
وتعطيك سر الارض والارض لا تدري (١)

وظهر في تشبيهاته اثر البيئة العلمية بحبرها وكتبها قال :

كأن الندامى حين كفوا بشربه محابر وراقين قد ملئت حبرا

وفي زمنه تعددت وسائل الزينة وكان الناس يحاولون ان يتجملوا ماستطاعوا فاستعملوا الموسى في الحلاقة والمنقاش لازالة بعض الشعرات البيض التي تبدو في الرأس أول الشيب فشبه بهذه الاداة فقال :

ملتقط للكلأ المنحاش كلقط الشيب بالمنقاش (٢)

وظهر في تشبيهاته اثر البيئة الاجتماعية :

سحابة والبروق تحرقها كشاطر بالسماط يعتور (٣)

واخيراً : هناك بيئة « الورد » والبيئة الطبيعية بجمالها في مروجها ونباتاتها وأزهارها فشبه بها أو شبه أزهار الطبيعة باشياء اخرى محسوسة ببيئته الحضرية المترفة . قال :

---

(١) ص ٢٦٩

(٢) ص ٢٩٧

(٣) ص ٣١٧

وبركة تزهــو بنيــلوفر الوانه بالحســن مدهوشه
نهاره ينظر من مقــلة شاخصة الاجفان مبهوته
كـأنما كل قضيــب له يحمل في أعلاه ياقوته «١»

وقال :

بيضاء ان لبست بياضاً خلتهــا كـالياسمين منضداً في مجلس
واذا بدت في حمرة فكأنهــا ورد من الداري حسناً مكتسي
واذا بدت في صفرة فكأنها نسرين بستان كريم المغرس
واذا بدت في خضرة في صفرة فكأنها للحسن باقة نرجس «٢»

ومما يؤخذ عليه في تشبيهاته انه قد يستعمل مشبهاً به لشيء من الاشياء ولـكن المشبه به لا يوحي بالصورة التي يراد نقلها أو انه يصور شيئاً كبيراً واسعاً ويشبه له بشيء صغير لتجمعهما الظلمة فقط كظلمة السماء المحسوسة وظلمة قلب الكافر المعنوية !

في ليلة فيهــا السماء مرزة سوداء مظلمة كـقلب الـكافر
والبرق يخطف من خلال سحابها خطف الفؤاد لموعد من زائر
والغيـث منهـل يسح كأنـه دمع المودع اثر الف سائر (٣)

أو كتشبيه الاثافي بنقاط حروف (الثاء) ! !

---

(١) ص ٣٠٤

(٢) ص ٣١٩

(٣) ص ٣١٩

عرج على الدار التي كنا بها   تغيرت من بعد عهدنا بها
غير ثلاث لم تزل تشقى بها   كنقطة الثاء لدى كتابها «١»

وقوله :

وناقة في مهمه رمى بها   هم اذا نام الورى سرى بها
فهي أمام الركب في ذهابها   كسطر «بسم الله» في كتابها «٢»

ومن تشبيهاته التي من هذا النوع :

وغناء يستعجل الراح غض   وكما ناح في الغصون الحمام
وكأن السقاة بين الندامى   ألفات على السطور قيام «٣»

وهناك من التشبيهات مالا يعرف قصده منه بوضوح :

وقادوا كل سلهبة سبوح   كأن اديمها شرق براح «٤»

فهل الغالب على الانسان في حالة الشرق بالشراب الحمرة أم الزرقة ؟ أم الصفرة ؟ وما يدرينا ان كل من شرق بالراح يحمر وجهه ؟

ومن تشابيهه المبهمة :

شوقني البارق عند الاصيل   والشمس ترمينا بطرف كليل
يبدو ويخفي ضوؤه ساعة   عنا كتقدير زياد البخيل «٥»

---

(١) ص ١٥

(٢) ص ١٦

(٣) ص ٢٤٩

(٤) ص ٢٧   (٥) ص ٣٢٥

وقوله :

وقد طال شوقي الى وجهه وضاق بسري صبري فباحا
واني لمنتظر رأيه كما انتظر العاشقون الصباحا«١»

ومن تشبيهاته مالايوحي بما يراد به كتشبيه الحية بالغصن المورق الكثير الورد وهو وان كان لون الحية كهذا الا ان كلمة غصن وورد تهش لها النفس ولا تهش لاسم الحية قال :

كأنني ساورتني يوم بينهم رقشاء مجدولة في لونها بلق
كأنها حين تبدو من مكامنها غصن تفتح فيه النور والورق«٢»

خاتمة من التاريخ :

كانت دعوة ابن المعتز الى الخلافة مفاجئة جداً ولو كان مهد لها لكنا رأينا في ديوانه على الاقل اثراً لذلك ويبدو لي انه كان يمثل الميل العربي الذي نشأ زمن جده المتوكل وحاول ان يعمل به ولذا نرى في شعره افتخاراً بنسبه غريباً كما انه كان يدعو الطالبيين الى الوحدة وكان يدعو العباسيين ان يتمسكوا بخلافتهم ونرى في ديوانه ابياتاً في هجاء بعض امراء القرامطة من الاعاجم وبعض الترك من الجنود وبعض الوزراء الذين يجيئون الى الحكم فيكونون هم الحكام الحقيقيين وهذا قد جلب له بعض المصاعب .

---

(١) ص ١٣٥

(٢) ص ٥٢

ويرى كاتب مادة ابن المعتز في « دائرة المعارف الاسلامية »
« ان ابن المعتز انف ان يزج نفسه في دسائس البلاط العباسي الذي كان يمر في أيامه باسوء عهوده ولكن لما توفى المكتفي وشبت نار الفتنة واستخلف المقتدر زج ابن المعتز بنفسه فيها » « ١ » وليس هذا الواقع فابن المعتز اشترك قبل سنة ٢٩٦ هـ وسجن لانه كان يمثل العنصر العربي في بلاط المعتضد . قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد :

« كان القاسم بن عبد الله الوزير قد تقدم عند وفاة المعتضد بالله « ت سنة ٢٨٩ هـ » الى صاحب الشرطة مؤنس الخادم ان يوجه الى عبد الله بن المعتز وقصي ابن المؤيد وعبد العزيز ابن المعتمد فيحبسهم في داره ففعل ذلك فكانوا محبسين خائفين الى ان قدم المكتفي بالله بغداد فعرف خبرهم فأمر باطلاقهم ووصل كل واحد منهم بالف دينار » « ٢ »

وعلى هذا كان ابن المعتز يكره النفوذ التركي في البلاط ويقاومه وكان الاتراك يكرهون ابن المعتز لانه يمثل الميل العربي ويفخر بنسبه العربي ويكون الاتجاه العربي المضاد .

والواقع ان ابن المعتز لم يشترك في الفتنة التي حدثت عام ٢٩٦هـ الا لخوفه من أن يزداد النفوذ التركي ويتفاقم اكثر مما هو عليه فقدولي المقتدر

(١) دائرة المعارف الاسلامية . مادة ابن المعتز ص ٢٧٩

(٢) تاريخ بغداد ص ٩٨

« وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وواحد وعشرين يوماً » «١» ولا نشك ان الجانب العربي خاف على الخلافة وخاف ان تنهب الاموال فقد ذكر انه كان في بيت المال يوم بويع المقتدر خمسة عشر الف الف دينار «٢» .

وابن المعتز في الحقيقة لم يكن ينوي شراً للخلافة القائمة أو للخليفة ولذا اشترط عند توليته « على ان لا يكون في ذلك سفك دم ولا حرب فاخبروه ان الامر يسلم اليه عفواً » «٣» وكان يناصر ابن المعتز الجانب العربي وعلى رأسهم محمد بن داود الجراح وابو المثنى احمد بن يعقوب القاضي وجماعة من القواد وتواطأ هؤلاء دون علم ابن المعتز على الفتك بالمقتدر « يوم الاحد لعشرة بقين من شهر ربيع الاول » «٤» .

وتمكن يونس الخادم في اليوم الثاني بواسطة هجوم من النهر من تشتيت جماعة ابن المعتز فهربوا واختفى ابن المعتز وجماعته ولم يقبض عليهم منذ اللحظة الاولى .

والظاهر ان المؤامرات بقيت تحاك للاستعداد للانقضاض الا ان

(١) الطبري (الطبعة الحسينية) ج ١١ ص ٤٠٤

(٢) الطبري ج ١١ ص ٤٠٤

(٣) نفس المصدر (سنة ٢٩٦ هـ) ص ٤٠٤

(٤) نفس المصدر ج ١١ ص ٤٠٤

سوء الحظ لازم حركة ابن المعتز .

« وفي يوم السبت لاربع بقين من شهر ربيع الاول منها ٢٩٦ هـ سقط الثلج ببغداد من غدوة الى قدر صلاة العصر حتى صار في الدور والسطوح منه نحو من اربعة اصابع وذكر انه لم ير ببغداد مثل ذلك قط » « ١ » وعلى هذا وقفت الصعوبات في وجه الحركتين وقبض عليهم يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر ربيع الاول وقال الخطيب البغدادي ان ابن المعتز قتل في أواخر شهر ربيع الاول «٢» وقال صاحب الوفيات قتل في يوم الخميس ثاني شهر ربيـــع الآخر سنة ٢٩٦ هـ «٣»

ويؤكد لنا المؤرخون على نزعة التشاؤم التي احسسنا بها في شعره بما ينقلون لنا عنه من اخبار .

عن الصولي : قال :

« سمعت عبد الله بن المعتز يوماً يشكو الزمان ثم قال : انا والله كما قال ابن مفرغ اليحصبي : »

طرف الفؤاد وعادني احزاني وذكرت غفلة باطلي وزماني
عالجت ايامـــاً اشبن ذوائبي ورميت دهراً عارماورماني «٤»

«١» ص ٤٠٥ ج ١١ نفس المصدر

(٢) ص ١٠٠ ج ١٠ تاريخ بغداد

«٣» ص ٢٥٨ ج ١ ابن خلـكان (٤) ص ٩٦ ج ١٠ تاريخ بغداد

ويشير نفسه فيما يكتب ويؤلف الى ذلك . قال في طبقات الشعراء :

« عقد الفكر طرفي ليلته بالنجوم لوارد ورد علي من الهموم ونفض عني كحل الرقاد والبس مقلتي حلل السهاد فتأملت فخطر على الخاطر في بعض الافكار . . . » «١»

ويظهر فخره بنصبه :

« ان اذكر في نسخة ماوضعته الشعراء من الاشعار في مدح الخلفاء والوزراء والامراء من بني العباس ليكون مذكورا في النـــــاس » «٢» ويفتخر بالعرب و بالرسول ويظهر ذلك نزعته العربية الخالصة وميله عن الفرس وغيرهم من الاعاجم :

« والصلاة والسلام على من اهتزت بارواح نصره اعطاف دولة العرب فماج بها خضم دولة الاكاسرة والقياصرة فاضطرب وخضع من اهوال صدامه رب التاج والسرير لصاحب الشاة والبعير فعظمت العرب بانف العز الشامخ وجرت مرحا ذيل الشرف الباذخ الذي ابكى بمولده عيون الكفرة فاخمد نار فارس وضعضع دعايم الفجرة فاصبح إيوان كسرى وهو طلل دارس » «٣» نأمل انا بهذا قد كشفنا ماغمض من حياة هذا الشاعر المعروف المجهول والخليفة الخامل !

(١ ـ ٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء (المقدمة)

فوز والعباس بن الاحنف

شاقني ديوان العباس بن الاحنف وغلب علي وأردت أن أعرف من اخبار الشاعر بعض ماقيل عنه وتوجهت الى كتاب الاغاني فلم يشفني لمافي رواياته من تناقض وتضارب ومافيه من أخبار قد تعارض ماذكر الشاعر عن نفسه ولذلك رجعت الى الديوان فوجدت الكثير عنه في ديوانه وفيه مالم يقله عنه أحد وانما قال هو عن نفسه وباح به هو لقارىء الديوان .

وقد لاحظت في قراءتي الديوان ملاحظات تتعلق باخبار الشاعر وعقيدته واخبار فوز وهي افتراضات اعرضها للقارىء .

كان الشاعر متكتما فيما يخص اسم حبيبته ونسبها ومكانها فكان يسميها فوزأو ظلوم وكان يصفها انهاذات خال وهي خالية منه كل ذلك لكي لانعرف من هي هذه المحبوبة ولكن اليس في الامكان الآن من اعطاء رأي في تلك الحبيبة ومعرفتها والقول بالتقريب والتخمين وبالاستناد الى ديوان الشاعر نفسه ؟

اظن ان ذلك ممكناً ولنستقرىء بعض اشعار الديوان .

ان الشاعر كان شديد الحذر في ذكر منزلها : « أيا منزلا لاابتغي ذكر أهله » «١»

«١» ديوان العباس بن الاحنف. بغداد ١٩٤٧ / ط عبدالمجيد الملاص ١٦٠

وكان شديد الحذر في ذكر اسمها

« كتمت اسمها كتمان من صار عرضة

وحاذر ان يفشو قبيح التسمع » (١)

والظاهر ان (فوز) لم تكن أمة أو جارية من جواري الوزراء والخلفاء ولم تكن جارية ممن يبعن الهوى . وان الظرفاء وهو منهم (٢) لايشترون الحب بالمال لعلمهم ان الجواري لايحببن الا للمال (كتاب الوشى للوشاء ورسالة ذم القيان للجاحظ) . قال :

زعم الجاهلون بي ان قلبي بالجناب الشرقي جد عميد

ليس عشق (الاماء) من شغل قلبي انما يعشق الاماء العبيد (٣)

والظاهر ان الفتاة التي كان يهواها الشاعر فتاة عربية اهلها من ذوي السلطان والجاه والثروة وإن حبه اياها يعرضه للمخاطر .

سعى بي اليك الحب عزماً على دمي

فلله در الحب اين سعى بي (٤)

الى هنا فنحن لانعرف الى الآن عن فوز شيئاً ولا نعرف من هي؟ ماأصلها ؟ ولكن نتقدم خطوة اخرى ونقول ان فوز (مدنية)

---

(١) ص ١٤٨

«٢» « الاغاني جـ ٨ ص ١٥ ـ ١٨ »

«٣» ص ٨١

(٤) ص ٣١

سكنت العراق ـ وكانت تذهب الى المدينة للحج ولزيارة اهلها هناك
قال :

مدنية امن العراق محلها ... ولها بزوراء المدينة دار
ادنى قرابتنا اليها اننا ... شخصان يجمعنا اليه نزار

لقد حصر هنا لنا حبيبته وعين أصلها فهي عربية وهي من أهل المدينة فهي لاشك من بنات العوائل التي نزحت الى العراق وحكمته في حكم العباسيين فهو يعين لنا في خبث وتحايل كثيرين انها (هاشمية) ولكنه يضيف الى القطعة الادبية الاخرى بيتاً ليزيد شكنا في القول أو قد يكون من إضافة جامع الديوان أو مغني الابيات لكي يبالغوا في تنزيه الهاشميين من بني العباس واصحاب السلطان في ذلك الآن .
قال :

وقد ظهرت اشياء منكم كثيرة ... وما كنت منكم مثلها اترقب
عرفت بما جربت اشياء جمة ... ولا يعرف الاشياء الا المجرب
ولي يوم شيعت الجنازة قصة ... غداة بدا البدر الذي كان يحجب
اشرت اليها بالبنان فاعرضت ... تبسم طوراً ثم تزوى فتقطب
غداة رايت (الهاشمية) غدوة ... تهادى حواليها من العين ربرب
فلو علمت فوز بما كان بيننا ... لقد كان منها بعض ما كنت أرهبا
الا جعل الله الفدا كل حرة ... لفوز المنى أني بها لمعذب (١)

---

(١) ص ٢٢

فهو قد اراد كما يبدو في البيت الذي قبل الاخير أن يجعلنا نشك ان فوزاً غير تلك : « الهاشمية » ولـكنها حيلة بارعة كما ارى من الشاعر أو زيادة من غيره لحاجة فى نفس يعقوب .

فالعرب فى عصر العباسيين كانوا فى حاجة الى تلطيف قصص فساد وعهر النساء العربيات من بنات الخلفاء والوزراء ورؤساء الدواوين والقضاة .

وان التاريخ الادبي يعج بفساد بنات الخلفاء العربيات مما يدلنا على مقدار التهتك الذي بلغته قصور هؤلاء الناس حتى جرى الفساد الى بناتهم وأبناءهم . وان قصة عمر بن ابي ربيعة مع « رمله » اخت عبد الملك بن مروان مشهورة « المحاسن والاضداد ص ٢٢٢ » وقصة « عليّه » اخت الرشيد مشهوره وقتل الرشيد اياها حدث بعدان سمع قولها يغنى :

بُني الحب على الجور فلو   انصف المعشوق فيه لسمج

ليس يستحسن فى وصف الهوى   عاشق يكثر تاليف الحجيج

فقليل الحب صرفا خالصاً   هو خير من كثير قد مزج

فزارها الرشيد وتناول الرشيد الشراب فامر الجواري ان يغنين ثم سقى اخته حتي اخذ الشراب منها واحمرت وجنتاها وفترت اجفانها وكانت من احلى النساء فضرب الرشيد الى حجر بعض الجواري واخذ العود وقال ياعليه بحياتي غني :

بني الحب على الجور فلو . . . !

فعلمت انها داهية فبكت فصاح الرشيد فخرج الجواري وبقي هو وهي فدفعها واخذ وسادة فجعلها على وجهها وجلس عليها فاضطربت اضطرابا شديداً ثم بردت فنحى الوسادة عنها وقد قضت نحبها فخرج وقال للخادم : اذا كان غداً فادخل وعزني ثم ركب متوجها الى قصره اه المحاسن والاضداد ص ١٩٤ ـ ١٩٥ » ولعلي لا اخطيء اذا قلت ان فوزاً هذه شابة من شابات القصور العباسية المتحللات من بنات الخلفاء والامراء العرب احبها واحبته حين خروجه ودخوله الى قصور الخلفاء فقد كان الشعراء يجلسون في قصور الخلفاء والوزراء وقصور الحرم . فالمهدي ادخل بشار على جواريه بعد طلبهن فقلن له (انت ابانا) فقال : (ونحن على دين كسرى) ! وفي الاغاني : حدثنا عمر بن بانه قال : كنا في دار أم جعفر جماعة من الشعراء والمغنين فخرجت جارية وكمها مملوء دراهم فقالت : ايكم القائل :

من ذا يعيرك عبرة تبكي بها أرأيت عينا للبكاء تعارا

فأومي الى العباس بن الاحنف فنثرت في حجره فنفضها فلقطها الفراشون (١) ويزيدنا تاكيدا ان محبوبته اميره عربية من بنات الخلفاء أو الامراء هذا القول :

طال ليلي بجانب البستان مع جواري المهدي والخيزران

---

(١) الاغاني ج ٨ ص ٢٢

ايها القانتون قوموا جميعا　　نشتكي مابنا الى الرحمن

ان فوزاً لما أتاها الجواري　　يتبا كين لما قد شجاني (١)

وفي هذا القول مايمكننا من تحديد غرام ابن الاحنف اذا تتبعنا نشأته الأول فالأول ولكن ما اسمها ؟ وابنة من حقاً ؟ وقريبة من لها ؟ فهذا هو الذي بقي سراً في قلب ابن الاحنف لم يبح به القارىء شعره ولا نتمكن ان نعمل فيه الا بالظن والتأمل العميق الذي لا تكفيه هذه العجالة .

والذي يمكنني ان الاحظه ايضاً ان للشاعر هدفا في حبه فهو لم يشأ أن يحب حباً تافهاً يزول بل كان يطمح الى شهرة وكان يطمح الى حب خالد يكسبه الخلود أيضاً وكان كثيراً ما يتمنى ان يكون سيد هؤلاء العشاق وحامل رايتهم : قال :

ورضيت بعد تنكبي طرق الهوى

ان قيل صاحب « راية العشاق » (٢)

وقال في شهرة حبه : « تحدث عنا القرون القرونا » (٣)

وقال :

فما يزال لنا أشياء نحدثها　　تكون للناس فيما بعدنا سننا (٤)

---

(١) ص ٢٢٤

(٢) ص ١٧٤

(٣) ص ٢٣٣　　(٤) ص ٢٣٢

وقال : « وكنا آية للناس . . . . » (١)

وهو لم ينظر الى نفسه كمحبوب مفرد بل نظر الى نفسه بين العشاق في التاريخ العربي والثابت انه قرأ اشعارهم واستفاد الكثير منهـــا ولكنه سبقهم في جعل الحب سنة وشريعة ودين وجعل من المرأة سيدة له .

يابني آدم تعـــالوا نـنــادي انما نحن للنساء عبيد
من يلمني على النساء ألمـه انا والله للنساء ودود (٢)

وكان يقول بمثل النظرية التي شرحها ابن حزم مؤلف «طوق الحمامة» بعد قرون والتي جاءتنا عن طريق الفلسفة اليونانية بان ارواح المحبين كانت متفقة وهي روح واحدة قبل أن تحل في الاجسام فتتجزأ وتتفرق .

كان خالقنـــــا للحب مبتدعا لم يفرد الروح لما افرد الجسدا

وفي شعره نزعة صوفية مبكرة يرفع فيها الحب عالياً ويفضله على الفوز « بدنيا آل عباس » « ص ١٤١ » وان في نوال المعشوقة مقنعاً « من كل شي كائن ما كان » (٢٣٧) حتى لو ملك العالم .

ولو أن لي من مطلع الشمس بكرة
الى حيث تهوى بالعشي فتغرب

---

(١) ص ١٨٣

(٢) ص ٧٦

احيط بها ملكا لما كان عدلها

لعمرك أني بالفتاة لمعجب (١)

وفيه مجوح وفتك وتغلب ظرافته على دينه فيقول :

فيــا شغلي عن الدنيــا ويا شغــلي عن الدين (٢)

---

(١) ص ٢٣

(٢) ص ٢٣٧

الشعر والبيئة عند النقاد العرب

— ١ —

كان « تين » TAINE أول ناقد اوربي من الذين اشاروا الى اثر الوسط أو البيئة فى منهجه الذي يتلخص في (١)

LA RACE, LE MILIEU, ET LE MOMENT (١)

فكان منهجه هذا فتحاً جديداً فى عالم النقد الحديث حيث لم يرتكز فى بناء منهجه على الادب الكلاسيكي والنقد القديم لاستخلاص قواعده النقدية الجديدة .

ولو استقرينا آثار اليونان والرومان فى النقد لما رأينا اشارة الى اثر البيئة فى الأدب . فهذه جمهورية افلاطون (٢) وكتاب الشعر لارسطو (٣) وفن الشعر لهوراس (٤) وال SUBLIME (٥) للكاتب الروماني LONGINUS وكتاب بلاغة ارسطو و (فى الاسلوب) (٦) لديمتروس كلها تخلو من الاشارة الى اثر البيئة .

ولعل العرب أول امة شعرت بأثر البيئة فى الشعر خاصة وتطور هذا

---

(1) H. A. TAINE: HISTCRY OF ENGLISH LITERATURE, ED. BY H. VAN LAUN, EDINBURGH, 1873

(2) PLATO, THE REPUBLIC

(3) ARISTOTLE : POETICS

(4) HORBCE : ARC POETICA

(5) LONGINUS : ON THE SUBLIME

(6) DEMETRIUS : ON STYLE

الشعر وتبدله تبعاً لتبدل البيئة وتغير المحيط . والسبب في هذا الادراك واضح جداً سهل التعليل فالعرب لم يستغرقوا طويلا فى انتقالهم السريع من الصحراء الى الريف والمدينة ومن البداوة الى الحضارة ومن البربريه الى المدنية !

في أقل من نصف قرن من الدعوة الاسلامية سكن العرب مدناً حديثة البناء ومدنا ضاربة في القدم وفي أقل من قرن ذابت روح البداوة والجفاء وظهر اثر البيئة الحضرية الجديدة فى اللباس والمأ كل والسلوك وتبعاً لهذا فقد شعر النقاد الأول باثر البيئة في الشاعر وشعره وعرفوا ان الشاعر الذي يعيش فى الحاضرة يكون شعره غير شعر الشاعر الذي يتبدى ونجد إشارات أولية الى البيئة فى كتابي طبقات الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبه .

قال ابن سلام في معرفة الشعر المنحول الذي ينحله الحضر للبدو : و « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على لسان شعرائهم ثم كانت الرواة بعد ذلك فزادوا في الاشعار وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون وانما عضل بهم ان يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الاشكال» (١)

(١) طبقات الشعراء : ابن سلام ص ٢٢

كان ابن سلام يشك في كثير من النصوص التي يراها لاتوائم المحيط الذي تذهب اليه قال : (كان النابغة ـ نابغة بن جعدة ـ علوي الرأي واخذ مروان ابنه وأبله بالمدينة فخرج ومدح مروان بن الحكم بابياب قال ابن سلام : وانا منها في شك ولكنه قال مالا اشك فيه

فان تاخذوا مالي وأهلي بظنة فاني لحراب الرجال مجرب) (١)

ويمثل اثر البيئه في شعر عدي بن زيد فيقول :

(وعدي بن زيد كان يسكن الحيرة ويراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف وخلط فيه المفضل فاكثر وله أربع قصائد غرر روائع مبرزات وله بعدهن شعر حسن) (٢) وكان ابن سلام شديد التحرز والشك في الشعر الكثير الذي كان يروى للشعراء ومنهم الاسود بن يعفر . قال عنه :

وذكر بعض اصحابنا انه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة ونحن لانعرف ذلك ولا قريباً منه وقد علمت ان أهل الكوفة يروون له اكثر مما نروي ويتجوزون في ذلك اكثر من تجوزنا (٣)

ويقول عن حسان شاعر البعثة لما رأى ضعف بعض اشعاره :

---

(١) ن م ص ٤٦

(٢) ن م ص ٥٠

(٣) ن م ص ٥٤

« وهو كثير الشعر جيده وقد حمل عليه مالم يحمل على أحد . تعاضهت قريش واستبت ووضعوا عليه اشعاراً كثيرة لا تليق به . »

ويرى ضعف الشعر المنسوب الى قريش فيعرف انه نشأ في غير تلك البيئة المكية التي تجمع فتوة اللغة وبراعة البيان الى رقة الحضارة فيشك فيه ويقول :

« ولابي سفيان بن الحارث شعر كان يقول له في الجاهلية فسقط ولم يصل الينا منه الا القليل ولسنا نعد مايروي ابن اسحاق له ولا لغيره شعراً ولان لايكون لهم شعرا أحسن من أن يكون ذاك لهم» (١)

ويقول عن قريش «واشعار قريش فيها لين يشكل بعض الاشكال» (٢)

ويرى ابن سلام في رأي من آرائه العديدة ولكنه مع الاسف رأي خاطيء اذ يجعل نشوء الشعر مقرونا بالبيئة الحربية قال ابن سلام :

« وبالطائف شعراء وليس بالكثير وانما كان يكثر الشعراء بالحروب التي تكون بين الاحياء نحو حرب الاوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا وذلك قلل شعر أهل عمان وأهل الطائف . » (٣)

---

(١) ن م ص ١٠٠

(٢) ن م ص ٩٩

(٣) ن م ص ١٠٧

ثم ان ابن سلام كغيره من المفكرين قد تجوز عليهم اشياء حاربوها ونقضوها فهو كان يحقق الشعر المنحول كثيراً ويرده ويعلله ولكنه رضي بابيات نسبها الى أمية بن أبي الصلت من شعراء الطائف قال عنه: «انه أشعرهم»«١» ومع اعترافه «انه فات عليه شعر منحول»(٢) فلم يجعل من الشعر المنحول القطعة التالية واعتبرها صحيحة وقال عنها:

«وكان ابو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال منها:

لله درهم من عصبة خرجوا	ما ان ترى لهم في الناس امثالا
بيضاً مرازبة غراً جحاجحة	أسداً تربب في الغيضات أشبالا
من مثل كسرى وسابور الجنود له	أو مثل وهرز يوم الجيش اذ صالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً	في رأس غمدآن داراً منك محلالا
تلك المكارم لاقعبان من لبن	شيبـــا بماء فعادا بعد ابوالا

والابيات الأول اشبه بشعر ذوي النزعة الشعوبية في الموالي بشعر امية ابن أبي الصلت!

— ٢ —

أما ابن قتيبة فعنده إشارات قليلة الى البيئة ودراسة اثرها في الشعر

«١» ن م ص ١٠٧

«٢» ن م ص ١٠٧

ومعرفة الشعر المنحول ومن ذلك قوله في شعر ينسب الى الاعشى :

« وهذا الشعر منحول لا أعرف فيه شيئاً يستحسن » «١»

وينقل رأي ابن سلام في عدي بن زيد ويقول : « كان يسكن الحيرة . . . ويدخل الارياف فثقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير وعلماؤنا لايرون شعره حجة » «٢» ويقول عن أبي دؤاد ناقلا قول الأصمعي :

« والعرب لاتروي شعر أبي دؤاد في الجاهلية وعدي بن زيد وذلك أن ألفاظها ليست بنجدية » «٣»

وابن قتيبة في الحقيقة لايملك قوة النقد التي يملكها ابن سلام فهو يقول عن تابط شرآ : «وذكر في شعره أنه اتى الغول فقتلها » «٤» وينقل له في ذلك شعراً . وينقل بعضاً من قصيدة امية بن أبي الصلت «٥» في مدح سيف بن ذي يزن وهي قصيدة محتملة الشك لأن الفاظها غير جاهلية حقاً من حيث التركيب .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١١

(٢) ن م ص ٦٣

(٣) ن م ص ٦٩

(٤) ن م ص ١٠٧

(٥) ن م ص ١٧٧

ماهي مميزات هذه البيئة الجـــاهلية :

تتميز البيئة الجاهلية بأنها بيئة منبسطة واسعة ، مديدة امتداد الافق وعلى ذلك كان أهلها صريحين صادقين يحبون الصراحة ويحبون الصحة ويحبون الـكثرة . يحبون من الاجسام أضخمها وأطولها ومن العيون أوسعها ومن الاجسام أملئها في اعتدال كل ذلك محكومين بقانون البيئة الصحراوية فالاسنان في الفم اذا كانت ذات فلج بينها سعة قليلة تكون محببة فيصفونها بالاقحوانة النظرة فوق تل من رمل وتكون ذات قرص ذهبي كقرص الشمس وحوله حزمة من أوراق بيضاء صغيرة متناثرة ولـكن لاعن بعد متراصة ولـكنها غير متلاصقة وبهذه الصور هام الشعراء كثيراً وخاصة وصف الاسنان بها .

قال أحدهم :

تجري السواك على غر مفلجة لم يغرها دنس تحت الجلابيب

وأجاد آخر في تشبيه لمعان الاسنان تحت الشفاه عند الابتسام كحزمة من أشعة الشمس تنطلق ضاربة أعالي الفضاء من وراء غيمة منقشعة حجبت قرص الشمس وهذا المنظر يكثر في الصحراء في الربيـع والشتاء وقد يحجب عن ابن المدينة لابنيتها ولبساتينها ولـكنه ظاهر لابن الصحراء المتبدي . قال :

حرة تجلو شتيتاً واضحاً كشعاع الشمس في الغيم سطع
صقلته بقضيب ناظر من أراك طيب حتى نصـــع

ويصف آخر فم امرأة :

وذو أشر شتيت النبت عذب نقي اللون براق برود

ويشبه أحدهم فم حبيبته تشبيها صريحاً بالاقحوان وهو تشبيه من صميم البيئة :

واذا تضحك ابدا ضحكها اقحواناً قيدته ذا أشر

لو تطعمت به شبهته عسلا شيب به ثلج خصر

والعسل معروف فى البيئة الجاهلية وعرف عندهم الثلج أيضاً .

وفي تشبيه بديع للغاية نرى الشاعر الجاهلي الذى يعيش فى بيئة خشنة ياخذ أجمل مافي بيئته وأدقه ليشبه به شيئاً جميلا فهو ياخذ أنف الرئم وما أصغر أنف الرئم وما أجمله ليشبه به نهداً صغيراً لفتـــاة ويقول :

مثل انف الرئم ينبيء درعها في لبان بادن غير قفر !

قل لو اجتمع الحضريون بعديدهم على أن ياتوا بمثل هذا لعجزوا !

وكما قلت أن البيئة الصحراوية قد أثرت في مقاييس الجمال عند العرب وأثرت في أذواقهم . فالخد عندهم أجمله ماكان أسيلا قال شاعرهم :

فبـــادرناهـــا بمستعجل من الدمع ينضح خداً أسيلا

وجعلتهم البيئة يرغبون ان تكون المرأة ريا المعاصم والسيقان هيفاء الخصر . قال الشاعر :

فهي هيفاء هضيم كشحها فخمة حيث يشد المؤتزر

وقال :

دار لبيضاء العوارض طفلة مهضومة الكشحين ريا المعصم

والمتتبع للشعر الجاهلي يرى أثر البيئة جلياً واضحاً في الشعر ويظهر ذلك في التشبيهات أوضح منه في أي مكان آخر .

— ٣ —

وكان هناك جماعة من الرواة لا يعترفون بالبيئة ولا يروون من الشعر إلا ما كان جاهلياً وإلا ما قلد الجاهليين وحياة الجاهلية الأولى :

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في الوساطة :

« ثم تصفحت مع ذلك ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج اذا أمكن : تارة بطلب التخفيف عند توالي الحركات ومرة بالأتباع والمجاورة وماشاكل ذلك من المعاذير المتمحلة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة وتبينت ماراموه في ذلك من المرامي البعيدة وارتكبوا لاجله من المراكب الصعبة التي يشهد القلب ان المحرك لها والباعث عليها شدة اعظام المتقدم والكلف بنصرة ماسبق اليه الاعتقاد وألفته النفس »(١)

ولقد لج هؤلاء القدماء مع المحدثين لجاجة غريبة ولم يعترفوا لهم بفضل ولم ينظروا الى شعرهم على انه شعر يحوي في الجمال ما يحوي الشعر الجاهلي ولكن نظروا اليه على انه شعر مدخول لا يؤمن أن يؤخذ به لأنه لا يؤمن عثار قائله من خطأ في استعمال الكلمات أو في

---

(١) الوساطة ص ١٠

النحو أو حتى في الخيال .

واهتم كل النقاد القدامى بنواحي معينة من الشعر كاللغة والنحو وغريب اللغة وأساليب العرب وعلى هذا تركوا الشعر المحدث لأنه لا يوحي الا القليل من الغريب ولم يوجد فيهم الأديب الذى يجمع الشعر لجماله .

قال الجاحظ :

« طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه فرجعت إلى الاخفش فوجدته لا يتقن إلا اعرابه فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالأيام والانساب . فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات » «١»

وبلغ من حقد القدامى على المحدث وغير الجاهلي انهم كانوا يرون فى فحول الشعراء الاسلاميين من العرب محدثين يابون روايتهم قال ابن قتيبه :

« كان عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته . والمحدث في قوله هذا هو شعر الفرزدق وجرير وأمثالهما » «٢»

---

(١) العمدة : ابن رشيق ج ٢ ص ١٠٠

(٢) الشعر والشعراء ص ٢

وكان يقول :

« لو أدرك الاخطل يوماً واحداً من أيام الجاهلية ماقدمت عليه أحداً . »

وينقل الصولي حديثاً عن أحدهم قال :

« وجه بي أبي إلى ابن الاعرابي لأقرأ عليه أشعاراً وكنت معجباً بشعر أبي تمام . فقرأت عليه من أشعار هذيل ثم قرأت ارجوزة أبي تمام على انها لبعض شعراء هذيل .

وعاذل عذلته في قوله . فظن اني جاهل من جهله

حتى أتممتها فقال لي : اكتب هذه فكتبتها ثم قلت : احسنة هي ؟ قال : ماسمعت باحسن منها . قلت : انها لأبي تمام . فقال : خرّف خرّف ! » (١)

وقال الصولي :

« وقف ابن الاعرابي على المدائني فقال له : إلى اين ياأبا عبد الله ؟ قال : الى الذي هو كما قال الشاعر :

تحمل أشياخنا إلى ملك تأخذ من ماله ومن أدبه

وقال أبو بكر :

فتمثل بشعر ابي تمام وهو لايدرى ولعله لودرى ماتمثل به وكذلك

(١) الصولي اخبار ابي تمام ص ١٧٥

فعله فى النوادر جاء فيها بكثير من أشعار المحدثين ولعله لو علم بذلك ما فعله » (١)

هـذا هو موقف النقـاد القدماء من المحدثين وكأن هؤلاء بقوا يعيشون ـ فى خيالهم ـ حياة جاهلية كما هي بفرسانها وخيامها وجمالها ولم يعرفوا مدى التغير الذي طرأ على البيئة التي تغيرت تغيراً كاملا فأثر فيها الدين وأثر فيها الترف وأثر فيها الاختلاط وأثرت فيها العلوم التي ترجمت والفت .

ولعل السبب لهذا الموقف العقلي هو الاطمئنان النفسي الذي الفه هؤلاء النقاد انه ماقاله القدامى من الجاهليين هو صحيح معصوم من الخطأ وان هذا يجعلهم فى مأمن من الحذر والخوف من الوقوع فى الخطـأ فيما لو أخذوا بشعر الاسـلاميين فيجد خصومهم عليهم هذه الهفوات أضف تعصبهم للغة والنحو والقرآن وما اليه . .

ومع هذا لانعدم وجوداحرار في الفكر يحكمون للشاعر فيما له وفيما عليه بغض النظر عن عصره وجنسه . قال الصولي عن لسان أحدهم :

« أما الشاعر فلا أعرف مع كثرة مدحي له وشغفي به في قديمه ولاحديثه أحسن من قول ابي تمام في المعتصم ولا أبدع معاني ولا أكمل مدحا ولا أعذب لفظاً ثم أنشد :

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به نظم من الشعر أو قول من الخطب

---

(١) ن م ص ١٧٧

. . . ثم قال : هل وقع في لفظ هذا الشعر خلل ؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلون بذلك وهذا كله بديع جيد » (١)

ورد الصولي على هؤلاء النقاد الذين يفهمون الأدب فهما لغويا أو نحويا أو خلقياً فقال :

« وليت شعري متى جالس هؤلاء القوم من يحسن أو أخذوا عنه، وسمعوا قوله ؟ أتراهم يظنون أن من فسر غريب قصيدة أو اقام إعرابها أحسن أن يختار جيدها ويعرف الوسط والدون منها ويميز الفاظها وأي أعتهم كان يحسنه » «٢»

كما اننا لا نحرم من النقاد امثال الصولي وابن المعتز والآمدي والجرجاني من ينظر الى الشاعر نظرة مجردة عن نزعته الدينية ومراعاة فنه الذي املته عليه بيئته واستحسانه أو ذمه تبعاً لجودة الفن فيه .

قال الصولي عن ابي تمام :

« وقد ادعى عليه قوم الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره وتقبيح حسنه وماظننت ان كفراً ينقص من شعر ولا أن إيماناً يزيد فيه وكيف يحقق هذا على مثله حتى يسمع الناس لعنه له ؟ ! » «٣»

---

(١) ن م ص ١٠٩ / ١١٤

(٢) ن م ص ١٢٧ (٣) ن م ص ١٧٣

« ولو كان على حال الديانة لأغروا من الشعراء بلعن من هو صحيح الكفر واضح الأمر ممن قتله الخلفاء ـ صلوات الله عليهم ـ باقرار وبينة وما نقصت بذلك رتب اشعارهم ولا ذهبت جودتها وإنما نقصوا هم في أنفسهم وشقوا بكفرهم . » «١»

« وكذلك ماضر هؤلاء الاربعة : الذى اجمع العلماء على انهم اشعر الناس ـ امرأ القيس والنابغة الذبياني وزهيراً والاعشى كفرهم فى شعرهم وانما ضرهم فى انفسهم .

ولا رأينا جريراً والفرزدق يتقدمان الاخطل عند من يقدمها عليه بايمانهما وكفره وانما يقدمونهما بالشعر . وقد قدم الاخطل عليهما خلق من العلماء وهؤلاء الثلاثة طبقة واحدة وللناس في تقديمهم آراء . . وما احسب شعر أبي تمام ينقص بطعن طاعن عليه فى زماننا هذا ، لأني رأيت جماعة من العلماء المتقدمين ممن قدمت عذرهم في قلة المعرفة بالشعر ونقده وتمييزه ورأيت ان هذا ليس من صناعتهم وقد طعنوا على ابي تمام فى زمانهم وزمانه . ووضعوا عند انفسهم منه فكانوا عند الناس بمنزلة من يهذى . وهو ياخذ بما طعنوا عليه الرغائب من علماء الملوك ورؤساء الكتاب ، الذين هم اعلم الناس بالكلام منثوره ومنظومه حتى كان هو يعطي الشعراء فى زمانه ويشفع لهم وكل محسن فهو غلام له وتابع اثره » «٢»

---

(١) ن م ص ١٧٣ (٢) ن م ص ١٧٤ ـ ١٧٥

احترم النقاد الممتازون في الادب العربي شعر المولدين ودرسوه على انه نتاج اناس من أهل الحضر في زمن وظرف خاصين ولهذا لم يتكافوا سبيل الرواة المتشددين في عدم رواية هذا الشعر المولد وعدم قراءته والتردد في استحسانه حتى ولو كان جيداً وجيده كثير .

وفطن النقاد المتأخرون الى أثر البيئة في الأدب المولد وعرفوا الفرق بين هذه البيئة الجديدة وبين البيئة البدوية الصحراوية . فان البيئة البدويه تكون الفاظها اجفى من البيئة الحضرية ويكون اسلوبها اقوى والبيئة الحضرية الين ويكون أسلوبها أسلس وأرق . بل لقد فطنوا الى الأثر النفسي في الاسلوب . فالجافي يكون ادبه ثقيل الالفاظ قويها وبعكس ذلك الشاعر الرقيق المرهف الحس وأحسن من انتبه إلى ذلك هو الجرجاني صاحب كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه)

قال عن أثر البيئة في الأدب :

« ومن شأن البداوة ان تحدث بعض ذلـــك » « وهو تعقيد الكلام وصعوبة الالفاظ » ولاجله قال النبي « ص» من بدا جفى . لذلك نجد شعر عدي وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان لملازمة عدي الحاضرة واستيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الاعراب ونرى رقة الشعر اكثر ماتأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك فان اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع الى الغزل فقد جمعت لك الرقة من اطرافها . فلما ضرب الاسلام بجرانه

واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى ونشأ التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام الينه وأسهله وعمدوا إلى كل ذي اسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً والطفها من القلب موقعاً وإلى ماللعرب فيه لغـــات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها كما رأيتهم يختصرون الطويل فانهم وجدوا للعرب نحو من ستين لفظة اكثرها بشع شنع كالقشنط والعبطنط . . . الخ .

فنبذوا جميع ذلك واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان وقلة نبو السمع عنه وتجاوزوا الحد فى طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن ومن خالطتهم الركاكة والعجمة وأعانها على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الاخلاق فانتقلت العادة وتغير الرسم وانتسخت هذه السنة واحتذوا بشعرهم هذا المثال وترققوا ما امكن وكسوا معانيهم الطف ماسنح من الالفاظ فصارت اذا قيست بذلك الكلام الاول يتبين فيها اللين فيظن ضعفا فاذا افرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقاً وصار ماتخيلت ضعفاً رشاقة ولطفاً » «١»

فهو فى كل هذا يريد الناقد ان ينظر إلى الأدب الذى نشأ في البيئة الحضرية كما هو لا ان يقارنه بادب قديم وببيئة غير هذه البيئة التي نشأ فيها الشعر الحضري . فاذا قارنا ادبين نشأ فى بيئتين مختلفتين فمنى هذا سوف نرى الضعف في أدب الرقة والسلاسة الذي نشأ في

«١» الجرجاني الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٣ ـ ٢٤

الحاضرة ولكن اذا قسنا كل ادب ببيئته فهذا هو الصواب وهذا هو الذي اخطأه الكثير من انصار القديم فحكموا على الشعراء بغير الحق وشوهوا جمال أدبهم ووصموهم بالضعف وغيره ويشير الجرجاني إلى اختلاف الشعر باختلاف نفسيات الشعراء :

« إلى انه قد كان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين فيه احوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره وانما ذلك بحسب اختلاف الطبايع وتركيب الخلق فان سلامة اللفظة تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة » «١»

ونرجع إلى الشعر في هذين القرنين انرى مقدار انطباقه على البيئة كانت البيئة فى العراق تختلف عن البيئة فى الجزيرة العربية التي خرج منها العرب فاتحين . ففي العراق جنائن لاتوجد في الجزيرة مثلها الافى الطائف والمدينة وهذا قليل بالنسبة إلى العراق الذي يحتل السواد حوالي ثلثيه . ويشقه نهرا دجلة والفرات شقاً من الشمال إلى الجنوب وفي العراق عاش الناس فى القرنين الثالث والرابع الهجريين خاصة حياة الشعوب المتحضرة التي بلغت قمة ترفها فكثر العلم وكثر المتجرون به وكثر الشعراء كثرة لا نجدها في فترة من فترات ادبنا الاخرى . فوصفوا كل شيء !

فقد وصفوا الرياض ووصفوا السماء ووصفوا الماء ووصفوا الانهار

«١» الوساطة ص ٢

فى حالة فيضانها وفي حالة هدوئها ووصفوا البرك والبحيرات ووصفوا الأسماك ووصفوا الحيوانات البرية التي تعيش في العراق فوصفو الذئب ووصفوا الغزلان ووصفوا البازي والطيور التى تصيد وتصاد ووصفوا مجالس الانس والرياض والرياحين والورود ووصفوا كل شيء وقع عليه الحسن فى هذه البيئة المترفة بل بلغ وصفهم حتى إلى الاشياء السخيفة احياناً كوصف الشمعة ومقص الخياط والمسبحة وسجادة المصلي وأكثروا من شعر الغزل في الجواري والغلمان. كل هذا صدى للبيئة الجديدة ولكن كثيراً من النقاد القدماء لم يرغبوا ان يباركوا فحملوا على الشعراء طيلة العصور من القرن الرابع تقريباً حيث يختفي صوتهم نهائيا وقدر الشعراء عند ذلك حسب أدبهم لا حسب الجنس أو القدم والتقليد ولا حتى حسب الحداثة !

ويقول الدكتور جميل سعيد في كتابه « الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين » عن أثر البيئة النهرية :

(وقد ظهر أثر البيئة النهرية في تعابيرهم . ومما يجري كالمثل من شعر ابن الحجاج عندهم : (حتى متى ترقص فى زورقي !) (١)

وقد لوّن الماء تعابيرهم فأبن المعتز يسمي رونقَ الوجه وحسنه (ماء) ويضيفه إلى الوجه :

«١» الدكتور جميل سعيد : الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ص ١٢٣ ، ١٢٤

لم ترد ماء وجهه العين الا شرقت قبل ريها برقيب

ويقول الدكتور جميل سعيد :

ونلمح أثر البيئة النهرية ذات الفيضان وذات الغرق والسباحة فى مثل ابن المعتز :

فظل في مكرع عذب وقد واواه عطشـــان
وضم لم تحسنـــه له في الريح اغصــان
كما ضم غريق ســـا بحاً والماء طـــوفان (١)

وفي الحقيقة ان الشعراء العرب وصفوا الطبيعة وصفاً حسياً كما نلحظ ذلك في شعر ابن المعتز فهو يجعلنا ندرك الصورة التي يريد ان ينقلها لنا ولـكن مع هذا لانعدم بعض الشعراء الذين يشركون الطبيعة فى شعرهم ويخاطبونها ويناجونها كأنها شيء يعي قولهم ، كما يفعل ابن الرومي في أوصافه . فيجعـــل النوار ينظر الشمس وقد اغرورقت عيناه بالدموع والشمس تضع خدها إلى الارض كالمريض الضارع وكمناجات الشريف الرضي للحمام وكأنه فى كلامه يخاطب الحمامة ويناقشها في أنها ليس مثل حاله وانه أشد ألماً منها وما اليه . يقول الشريف :

ياطائر البان ماغربت عن سكن يوماً ولا كنت عن مأوى بمطرود

«١» الدكتور جميل سعيد : الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ص ١٢٣ ، ١٢٤

وأنت في ظل أفنان مهدلة تحنو عليك بفنوان العناقيد
ملأت عيشك طعما غير مختلس بـــلا رقيب وورد غير تصريد
تبكي ومالك من الف فجعت به ولا لويت على بعـــد بموعود
ظلمت ما أنت من همي ولا كمدي! ان العليل لقلب عاده عيدي!
انا الذي إن بكى وجداً فحق له كم بين باك من البلوى وغريد

والادب في هذين القرنين ليس من أثر الطبيعة فقط بل نلمس فيه ظل أثر الحياة السياسية والاجتماعية والشعر في هذين القرنين بصورة « أقرب الى الايجاز انه رجع صدى للبيئة العامة » «١».

«١» الأدب في ظل بني بويه : الدكتور غناوي

النقد الذوقي والمنهجي عند العرب

— ١ —

يبدأ النقد أول مايبدأ بسيطاً يعتمد على ملاحظـــات ذوقية يستحسنها قاريء الأدب فيبني احكامه عليها . فهذا البيت حسن وهذا البيت قبيح ! وهذا سهل وهذا يصعب ثم يقف الناقد عند هذا . . وان جميع الامم لتمر بهذه المرحلة من النقد الذوقي البسيط الذي لايعتمد على منهج أو طريق بين .

وبدأ أول مابدأ النقدعندالعرب فكان نقداًذوقياً ثم تطور النقد وترجمت آثار الاغريق وتخصص النقاد للتميز عن جيد الشعر والبحث عن أسباب هذه الاجادة فنشأ المنهج ووضع العرب اسما للنقدالمنهجي. ولكلمة « ذوق » معناها اللغوي ومعناها الاصطلاحي . فقد جاء في اللسان « الذوق مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقا . . . وقول : ذقت فلاناً وذقت ماعنده أي خبرته . » (١) « وتذوقته أي ذقته شيئاً بعد شيء . . وقال ابن الاعرابي في قوله : فذوقوا العذاب . قال : الذوق يكون بالفم وبغير الفم » «٢» وفي التنزيل : « ذق انك انت العزيز الكريم » و« هذا من المجازان يستعمل الذوق وهو مايتعلق في الاجسام في المعاني » «٣» وعرف العرب معناها الاصطلاحي بعد ان ترجموا

(١ ـ ٣) ابن منظور لسان العرب ج ٦ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٢

الفلسفة اليونانية فالكلمة على ما أعرف تظهر أول ما تظهر في كتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر « ٢٦٥ ـ ٢٩٧ هـ » الا ان مفهومها يختلف عما يقصد بها الآن . فهو يقصد بها القدرة والطبع الفطريين على النظم دون الرجوع الى كتب العروض لتعلم الاوزان . فيقول : وعلما الوزن والقافية وان خصا الشعر وحده فليست الضرورة داعية اليهما لسهولة وجودهما في طباع اكثر الناس من غير تعلم » «١» « ولو كانت الضرورة الى ذلك داعية لكان جميع هذا الشعر فاسداً أو اكثره ثم ماترى أيضاً عن استغناء الناس عن هذا العلم بعد واضعه الى هذا الوقت فان من يعلمه ومن لايعلمه ليس يعول في شعر اذا اراد قوله إلاعلى « ذوقه » دون الرجوع اليه » وبذكر ذلك انه لم يجعل الذوق الادبي حكماً في معرفة الجيد من الردي ولذا فهو يضع كتابا لذلك فيقول:

« ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا . » «٢»

ونجد كذلك في كلمة «ذوق» في دلائل الاعجاز لعبدالقاهر الجرجاني « ت ٤٧١ » ذات معنيين اثنين :

أولهما : القدرة على تذوق الجمال في القطعة الادبية ومعرفة أسبابه وهو المعنى الحديث المقصود من الكلمة .

«١» قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٠

(٢) ن م ص ١٠

وثانيها : القدرة على الشعور بعيوب البيت الشعرى كالزحاف والعلل ، ويسمي هذا الذوق « الطبع » كما سماه قدامة أيضاً .

قال الجرجاني في دلائل الاعجاز بعد أن تكلم فى سر الجمال وأثر التقديم والتأخير في الالفاظ في قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » وقوله : « جعلوا لله شركاء من الجن » وقوله : « ولكم فى القصاص حياة » قال : « واعلم انه لايصادف القول فى هذا الباب موقعاً من السامع ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق » والمعرفة . . وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحيه تارة ويعرى منها أخرى وحتى اذا عجّبته عجب وإذا نبهته لموقع المزية انتبه فأما من كانت الحالان والوجهان عنده ابداً إلا اعرابا ظاهراً فما أقل مايجدى الكلام معه فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الاحساس بوزن الشعر « والذوق » الذى يقيمه به والطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره ومزاحفه من سالمة وما خرج من البحر مما لم يخرج منه فى انك لاتتصدى له ولا تتكلف تعريفه ولعلمك انه قد عدم الاداة التي معها يعرف والحالة التي بها يجد فليكن قدحك فى زند وار والحك في عود انت تطمع منه في نار » «١»

وينتهي بنا المطاف فى تطور كلمة « ذوق » الى ابن خلدون في المقدمة حيث بحث في جميع العلوم المعروفة فى زمنه مبحث الاجتماعي

«١» الجرجانى « عبد القاهر » : دلائل الاعجاز

الذى يعلـــل سبب ظهور الظواهر والبحث في الاشياء وفي منشأها وموتهـــا .

فهو بقدر مايصيب في إيضاح كلمة « ذوق » ويوضح انتقالها من المعنى الحسي الى المعنى المعنوى نراه ضيق الافق في تعريف كلمة « ذوق» إلى حد يخل به كناقداجتماعي . فهو يعجز عن معرفة حقيقة الذوق كمافهمه من سبقه من نقادالادب كابن سلام والجرجاني والامدى فيفهمه على أن « لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان » «١»

والذوق عند القدرة والملكة على التعبير بالاسلوب العربي ولذا فان ابن خلدون حرم الاعاجم من الذوق «٢» بينما حقيقة الذوق هي انه ملكة في النفس قد تكون مع الانسان فتراه يميز ماهو جميل وتهفو اليه نفسه .

وقدرة التذوق تختلف عن قدرة النظم فليس لمن له قدرة التذوق له قدرةالنظم ونستطيع أن نقول بالعكس إذا قلنا بقول سقراط : « ان الشعراء من هذه الناحية لايختلفون عن الانبياء والكهنةالذين ينطقون بالكلام الحسن دون أن يعرفوا ماذا يقولون » «٣»

«١» ابن خلدون : المقدمة ص ٥٦٢

«٢» ن م ص ٥٦٣

«٣» لآسل ابركرومبي قواعد النقد الادبي ص ٣

ولا بأس أن ننظر في تاريخ النقد الذوقي عند العرب . فالعرب امة لم تعرف الكتابة ولم تترك لنا أثراً ادبياً مكتوباً عن الجاهلية وانما كان جل اعتمادها على ماترويه وما يحمله الرواة من أبناءها وبذلك حمل الينا شعرها واخبارها وجاءت قصص تدل على أن العرب قداخذوا في النقد ولكنه نقد ذوقي لايتعدى الحكم على ان هذا محسن أو مسيء أو ان هذا الشعر جيد أو رديء !

فذوقهم النقدي نتائج ليست مبنية على أسباب واضحة ونتائج احكامها مستترة وراء ضمير الحكم !

فمثلا كان يضرب للنابغة في الجاهلية قبة في سوق عكاظ يجلس فيها ويأتيه الشعراء والشاعرات ينشدونه أشعارهم ويحكم لهم فيها . وينتخب أشعر من قال في ذلك العام كله وحفظ التاريخ احد تلك المواقف قال ابن قتيبه

« أتاه الاعشى فانشده ثم أتاه حسان فانشده فقال : لولا ان ابا بصير استنشدني آنفاً لقلت . انك اشعر الجن والانس . قال حسان والله لانا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك !

فقبض النابغة على يده وقال يابن أخي ! انت لا تحسن أن تقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع(١)

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٢٣

وجاءته الخنساء بعد ذلك فقال : مارأيت أشعر منك (١)

سنقف قليـلا عند هذا النص ففيـه كل ماينبغي. ونسأل هذه الأسئلة:

لماذا فضل العرب النابغة وحكموه فى أشعارهم ؟

لماذا فضل الاعشى على حسان ؟

لماذا فضل نفسه على حسان ؟

ثم لماذا بعـد ان فضل نفسه والاعشى على حسـان قال للخنساء « مارأيت . . . أشعر منك ؟ ! »

على أي القواعد كان يستند فى أحكامه التي يصدرهـــا فيجعل الخنساء أشعر من رأى ؟ وقبل قليل جعل الاعشى أشعر من حسان وفضله على كل الشعراء ؟ !

ان احكام الجاهليين تبدو من هذه القصة ـ ان صدقت القصة ـ مستندة على الذوق والذوق الذي يتغير بتغير المواقف و بتغير الاماكن و بتغير الزمن فالاعشى هواليوم أشعر من فى عكاظ و بعد قليل تكون الخنساء أشعر من رأى وهكذا . .

وهناك قصة أقدم من قصة النـابغة في قدمهـا ترجع الى امرىء القيس ولولا مايكتنفها من شك كبير لقلنا ان العرب حتى نساءهم قد أخذن بحظ وافر من النقد الفني الذي يستمد اسسه من الذوق احتكم علقمة الفحل وامرؤ القيس الى ام جندب زوجة الاخير لتحكم بينهما :

(١) ابن قتيبه الشعر والشعراء ص ١٢٣

أيهما أشعر ? فقالت : قولا شعراً فقالا شعراً على روي واحد وقافية واحدة فقال امرؤ القيس :

خليلي مرا بي على ام جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

ففضلت علقمة عليه لأن امرأ القيس قال :

فللسوط الهوب وللساق دره والزجر منه وقع اخرج مهذب

قالت له : « جهدت فرسك بسوطك ومريته « حششته » بساقك»

وفضلت علقمة لأنه قال :

فادركتهن ثانياً في عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

وقالت : « فادرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه لم يضربه بسوط ولا مراه بساق ولا زجره . فقال : ماهو أشعر مني ولكنك له وامق » (١)

وهذه القصة مشكوك فيها ويظهر انها منتحلة لما بين القصيدتين من شبه كبير لا يعقل ان الشاعرين قالا ذلك كل على حدة وانفراد فجاء قولهما متفقاً .

والظاهر ان الواضع للقصيدتين واحد أو ان احدى القصيدتين قيلت ثم قلدها قائل آخر فاخذ من الاولى الكثير ووضعت لها القصة

(١) ن م ص ٥٨

بعد ذلك :

وكذلك كان يدرك الجاهليون بعض عيوب الشعر كالاقواء مثلا ولكن لم يعرفوه عن دراسة للعروض بل ادركوه لحساسية نفوسهم وصفاء اذواقهم . قال ابو عمرو بن العلاء : « فحلان من فحول الجاهلية كانا يقويان . بشر بن ابي خازم والنابغة الذبياني . فاما النابغة فدخل يثرب فغني بشعره فلم يعد وأما بشر بن ابي خازم فقال له اخوه سوادة انك تقوي . قال ماالاقواء ؟ قال قولك :

الم ترَ ان طول الدهر يسلي ... ويُنسي مثل مانسيت حذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغوا علينا ... فسقناهم الى البلد الشآمِ

فلم يعد للاقواء . » (١)

— ٢ —

وجاء الاسلام بالقرآن منزلا . واحتوى القرآن شيئاً كثيراً من الاحكام .

احكام المجتمع البدوي والآداب الاجتماعية والظواهر الاجتماعية ولم يكن الاسلام ليشغل بالشعر والشعراء ولكنه لم يترك هذه الظاهرة دون أن ينوه الى موقفه منها . وموقف الاسلام يتضح في قوله تعالى

(١) ن م ص ٨٦

« والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً . . » (الشعراء ٢٦ : ٢٢٧)

وعلى ذلك قد نظر الى الشعراء نظرة فيها حذر . ولم يقف هذا القول في وجوه الشعراء ولكن نرى موقف الاسلام من الشعر موقف اخلاقي بصورة عامة يشبه موقف افلاطون من الشعر فى جمهوريته وقد حاول بعض الشعراء ان يسايروا اتجاه الاسلام العام الجديد كحسان الذي اراد أن يجرد شعره من كل عواطفه ويجعله قالباً اسلامياً . حتى قال الاصمعي رأيا في ذلك :

« الشعر نكد . بابه الشر . هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره » (١)

والواقع ان شعر حسان الذي يمثل الاتجاه الاسلامي لم يضعف الى هذا الحد ولكن قد حمل على حسان شعر كثير لم يفطن اليه الاصمعي !

وقد اثر الاسلام كثيراً على بعض الشعراء بدل أن يبعث فى نفوسهم الحماس والخيال فافقدهم وقدة الشاعرية وخيالها لا لأن الاسلام ارادهم على ذلك ولكنهم هابوا الإسلام . فلبيد بن ربيعة : « لم يقل

---

(١) ن م ص ١٠٤

شعراً فى الاسلام الا بيتا واحداً . » (١)

وهذا الخبر وان لم يكن صحيحاً بحذافيره ولـكنه يصور قلة شعر هذا الشاعر فى الاسلام أو جحود عواطفه الذي سنعلله عما قليل .

ويقول ابن قتيبة ان عمر بن الخطاب قال له : « انشدني من شعرك فقرأ سورة البقرة .

وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد ان علمني الله سورة البقرة فزاد عمر فى عطاءه خمسمائة درهم وكان الفين » «٢»

فالاسلام اذاً نظر الى الشعر نظرة خلقية . وان ديناً جديداً كالاسلام قلب مجتمعاً رأسا على عقب وجاء بالقرآن يهدد ويعد ارعب القلوب وادخل كل تصرف يصدر عن الأنسان فى نطاق الدين فيعـاقب عليه الأنسان أو يثاب واستقر ذلك فى ضمائرهم ونظروا إلى القرآن لا على انه قطع ادبية رائعة وقصص اخاذة بل على انه قانون دين تجب طاعته فعجزوا عن تقليده واكبروه وجعلوا من يحاول ان يقول مثله ماهو الا كاذب ومتنبىء وبذلك خسر العرب الفترة التي كان يجب ان تكون فترة انتقال وطفرة في الشعر ونقل الشعر العربي الى نوع آخر يعالج فنوناً جديداً كالفن القصصي الطويل أو الفن التمثيلي ومضت الفرصة بذلك على التاريخ .

---

(١) ن م ص ٨٨

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤٨ والشعر والشعراء ص ٨٩

والاسلام في الواقع لم يحدد افقاً معيناً ولم يحرم نصاً أي باب من ابواب الشعر وانما كان انصراف بعض الشعراء عن فنون الهجاء أو الغزل وما أشبه انصرافاً شخصياً ذاتياً ولذا فان الأسلام لا يحمل تاخير الشعر أو وضع العراقيل أمام عبقرية الشعراء .

أما النقد فى هذه الفترة فلا زال ـ لو استقرينا القصص التي تدور حول النقد ـ نقداً ذوقيا عاماً كالجاهلية وهناك قصص تنسب تروي عمر بن الخطاب ان اصدر احكاماً على بعض الشعراء . ويزيد شكنا فى قيمتها التاريخية صدور حكمان مختلفان من رجل واحد وان صدقناهما على انهما قصتان وقعتا فى فترتين مختلفتين فلا نتمكن إلا أن نرجعهما إلى جانب الاعجاب الذاتي الوقت بابيات من شعر شاعرين فى فترتين مختلفتين

قال الاخطل لعبد الملك بن مروان محدثاً عن النابغة :

« وقد فضله عمر بن الخطاب على الشعراء غير مرة . خرج وببابه وفد غطفان فقال : أي شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

فقالوا : النابغة . قال : فاي شعرائكم الذي يقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي   وان خلت ان المنتآى عنك واسع

فقالوا : النابغة . قال : هذا أشعر شعرائكم . » (١)

ويروى انه قال :

---

(١) الشعر والشعراء ص ٣٨ ـ ٣٩

« انشدوني لأشعر شعرائكم . قيل ومن هو ؟ قال : زهير قيل : وبم صار كذلك ؟ قال : كان لايعاضل بين القول ولا يتتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه » (١)

وعلى وجود الاختلاف الوارد في الروايتين للخبر الاخير في كل من طبقات ابن سلام والشعر والشعراء ففي هذا الحكم مبالغة لاتقوم على استقراء . ففي شعر زهير كثير من حوشي الكلام ولو تتبعنا شعره لرأينا فيه الكثير من الكلمات الصعبة المغلقة كالذين روي لنا شعرهم من الجاهليين !

ثم لعل هذا القائل استند في حكمه على انه لايمدح الرجل إلا بما فيه مستنداً على صلة زهير بهرم بن سنان .

ويقول الاستاذ طه أحمد ابراهيم :

« وليس عجيبا ان نرى كثيراً من الاعجاب ينصرف في عصر البعثة إلى الشعر الخلقي وإلى شعر الفضائل والعظات وإلى شعر المروءة والهمة أنشد النبي بيت طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

قال : هذا من كلام النبوة وكان عمر معجباً بنزعة سحيم الدينية

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٨ والشعر والشعراء ص ٤٤

ويقول :

عميرة ودع ان تجهزت غاديا   كفى الشيب بالاسلام المرء ناهيا (١)

واستمرت هذه الاحكام القائمة على الاعجاب والتي لا تقوم على موازنة اكيدة دقيقة وعميقة . ففضل رواة الشعر بعض الشعراء على بعض وفضل الشعراء بعضهم على بعض باقوال غامضة مبهمة . وهذه نماذج منها .

عن الرياشي : ان الاصمعي قال في بيت ابي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها   واذا ترد إلى قليل تقنع

هذا أبدع بيت قالته العرب » «٢»

« واجتمع عند عبد الملك اشراف من الناس فسألهم عن أرق بيت قالته العرب فاجمعوا على بيت امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي   بسهميك في اعشار قلب مقتل «٣»

و « أهل الحجاز يفضلون النابغة وزهيراً ويقال كان النابغة أحسن الناس ديباجة شعر واكثرهم رونق كلام واجزلهم بيتــاً كأن شعره كلام ليس فيه تكلف ونبغ بالشعر بعد ما احتنـــك وكان يقوي

(١) طه أحمد ابراهيم : النقد الادبي عند العرب في العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري . ص ٤٠

(٢) الشعر والشعراء ص ٨ ـ ٩

(٣) ن م ص ٣٧

في شعره «١»

و « قال عِكرمة بن جرير : قلت لأبي من أشعر الناس . قال : جاهلية أم أصلامية . قلت جاهلية . قال زهـــير : قلت فالاسلام قال الفرزدق قلت فالاخطل ؟ قال : الاخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر . قلت له فانت ؟ قال : انا نحرت الشعر نحراً » «٢»

و « قيل لخلف الاحمر : زهير أشعر أم ابنه كعب قال : لولا ابيات لزهير اكبرها الناس لقلت : كعب أشعر منه يريد قوله :

لمن الديار بقنة الحجر اقوين من حجج ومن دهر »(٣)

و « قيل لعمرو بن معاذ وكان بصيراً بالشعر : من أشعر الناس ؟ قال : أوس . قيل ثم من ؟ قال أبو ذؤيب وكان عاقلا في شعره كثير الوصف لمكارم الاخلاق وهو من أوصفهم للخمر والسلاح ولا سيما للقوس وسبق الى دقيق المعانى وإلى أمثال كثيرة » «٤»

و « قيل للحطيئة من أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

لا أعد الاقتار عدماً ولـكن فقد من قد رزئته الاعدام

يعني ابا داود » «٥» شاعر جاهلي

---

(١) ن م ص ٣٨

(٢) ن م ص ٤٤ ـ ٤٥

(٣) ن م ص ٤٥

(٤) ن م ص ٤٧ (٥) ن م ص ٦٩

وقال الحطيئة : « ابلغوا الشماخ انه أشعر غطفان » «١»

ويظهر من هذه الامثلة العديدة اختلاف الاحكام باختلاف الأوقات كاختلاف الحطيئة وتفضيله الشماخ مرة وابى داود مرة أخرى .

كما ان احكامهم عامة ، الا انها اكثر دقة من النقد في الجاهلية . فقد عرف بعض الشعراء بميزات شعرهم فبعضهم من اهجى وبعضهم امدح وبعضهم اوصف كالحطيئة عرف انه يجيد المدح ويجيد نعت الخمر كما أشار الى ذلك جرير الا ان دراستهم للشعراء كانت عامة مشوشة وكانت الاحكام غير ثابتة وغير مستقرة .

ويمثل هذا الاضطراب في الحكم الخبر الذي نقله ابن قتيبة :

« كان العتبي انشد مروان بن ابى حفصة لزهير : فقال هذا اشعر الناس ثم انشده للاعشى فقال : بل هذا أشعر الناس ثم انشده فقال: بل هذا أشعر الناس ثم انشده لامريء القيس فكأنما سمع به غناء على الشرب . فقال : امريء القيس والله أشعر الناس » «٢»

وقد الف بعض النقاد كتبا تجمع اخبار الشعراء واحكامهم النقدية عليهم وهذا العمل بداية نشأة مدرسة النقد المنهجي عند العرب . وأول كتاب لدينا فى هذا الباب هو كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي

---

(١) ن م ص ١٠٩

(٢) ن م ص ٢٠

من هو ابن سلام ؟

هو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله بن سالم الجمحي البصري .

« كان له علم بالشعر والاخبار » وتوفي سنة ٢٣٢ هـ في السنة التى مات فيها الواثق وبويع المتوكل بن المعتصم والظاهر أن الأوائل اهتموا به كاهتمامنا نحن به ولـكن كل نظره من الناحية التي يريد . فقد استشهد باقواله صاحب الاغاني مراراً ونقل عنه السيوطي في المزهر وكتابه أول كتاب يجمع النقد الادبي والتاريخ .

نجده فى مقدمة كتابه يكتب مقدمة فى « الذوق » وفي ضرورة وجود ناقد ادبي مختص . فالنقد الادبي عنده خارج عن نطاق النحو ورجل اللغة كما ان لـكل مهنة من المهن اناس اشتغلوا بها فاتقنوها .

قال : « للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ماتثقفه اليد ومنها مايثقفه اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت لايعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره » (١) ويحاول ان يعطي لنـا حكماً فى كيفية تكوين ذوق أدبي فيقول :

« قال قائل لخلف اذا سمعت انا بالشعر واستحسنته فما أبالي ماقلتِ فيه انت وأصحابك ! فقال له : اذا وجدت انت درهما واستحسنته

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٦ ـ ٧

فقال لك الصراف انه ردئ، هل ينفعك استحسانك له ؟! » «١»

وكان ابن سلام بذلك يثور على النحويين والرواة والجماعة الذين نصبوا انفسهم نقاداً ينقدون الشعر. فهو فى هذه القصة يفرق بين الذوق الساذج والذوق المدرب . وينعى على محمد بن اسحق صاحب السيرة جهله بالشعر وقلة تذوقه فيقول :

« وكان ممن هجن الشعر وافسده وحمل منه كل غثاء محمد بن اسحق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسير فقبل الناس عنه الاشعار وكان يعتذر منها ويقول : لاعلم لي بالشعر ، انما اوتي به فاحمله ولم يكن ذلك له عذراً فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال . ثم جاز ذلك الى عاد وثمود . أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ومن اداه منذ الوف السنين ؟ والله يقول : «وانه أهلك عاداً الأولى وثمود فما ابقى » وقال فى عاد « فهل ترى لهم من باقية » «٢» وفي هذا النص نرى المنهج التاريخي الى جانب المنهج الفني يستعملان بدقة فهو ينعى على ابن اسحق ذوقه ثم يلومه انه نقل شعراً لرجال « لم يقولوا شعراً قط » وهذا يدل على تحقيق ورجوع الى التاريخ لمعرفة حياة الرجال الشعراء من غيرهم . كما ان

(١) طبقات ابن سلام ص ٦ ـ ٧

(٢) ن م ص ٦ ـ ٧

حجته في أشعار عاد حجة نقلية قوية اخذها مستنداً إلى القرآن كما يستند الباحثون إلى آراء من سبقهم .

ولكن هل سوف تكون كل احكامه صادرة عن دراسة منهجية وذوق عميق ؟ ! كلا . . . انه سيضع منهجاً خاصاً يحكم به لكثرة الشعر والقدم والجودة وكثيراً مايقدم الكثرة على الجودة . وان احكامه واستحسانه عام لا يعلل لماذا استحسن هذا الشعر وكان في تفضيله شاعر على شاعر مستنداً على أقوال القدماء بجمعها دون ان يستقصي هو في الشاعر أسباب الجمال في شعره أو اسباب القبح .

واني سأستقصي احكامه التي أصدرها هو بنفسه على الشعراء انرى نوعها وهل سوف يغلب عليها الطابع الذوقي الذي يعلل أم لا ؟

قال عن الشماخ : « كان شديد متون الشعر أشد اسر كلام من لبيد وفيه كزازة ولبيد أسهل منه منطقاً » و « له أشعار وشهرة «١»

ويقول عن الطبقة الرابعة :

« وهم أربعة رهط فحول شعراء ، موضعهم مع الاوائل وانما أخل بهم قلة شعرهم بايدي الرواة «٢» ثم يذكرهم وهم : طرفة بن العبد وعبيد بن الابرص وعلقمة بن عبيدة وعدي بن زيد .

---

(١) ن م ص ٤٧

(٢) ن م ص ٤٩

ويقول :

فاما طرفة فاشعر الناس واحدة وهي قوله :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد «١»

ويقول : « وعبيدة بن الابرص قديم الذكر ، عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا اعرف الا قوله :

اقفر من اهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب !

ولا أدري مابعد ذلك » «٢»

ويقول : « ولابن عبيد (اي علقمة بن عبدة) ثلاث روائع جياد لايفوتهن شعر » «٣»

ويقول : « قال ابن سلام : كان الاسود (بن يعفر) شاعراً فحلا . . . وله واحدة طويلة رائعة لاحقة باول الشعر لوكان شفعها بمثلها قدمناه على أهل مرتبته » «٤» وهي :

نام الخلي فما أحس رقادي والهم محتضر لدى وسادي

وله شعر كثير جيد ولا كهذه » «٥»

---

(١) ن م ص ٤٩

(٢) ن م ص ٤٩ ـ ٥٠

(٣) ن م ص ٥٠

(٤) ن م ص ٥٣

(٥) ن م ص ٥٣

ويقول عن عنترة :

« وعنترة بن شداد بن معاوية . . . له قصيدته التي يقول فيها

يادار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي !

وله شعر كثير الا أن هذه نادرة فالحقوها مع اصحاب الواحدة

وسويد بن ابى كاهل اليشكري . . . وله قصيدة التي اولها :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها فانقطع

وله شعر كثير ولكن برزت هذه على شعره » «١»

ويقول عن عمرو بن شأس :

« كثير الشعر في الجاهلية والأسلام وهو اكثر طبقته شعراً وكان ذا قدر وشرف ومنزلة في قومه . . » «٢»

وقال في أصحاب المراثي :

« قال محمد بن سلام جعلنا أصحاب المراثي طبقة بعد العشر طبقات أولهم متمم بن نويرة رثى أخاه مالكا والخنساء ابنة عمرو بن الحارث رثت أخويها صخراً ومعاوية وأعشى باهلة وكعب بن سعد بن عمرو الغنوي رثى أخاه ابا المغوز . . . . » «٣» . قال ابن سلام : « والمقدم عندنا متمم بن نويرة » «٤» ويقول عن شعراء القرى

(١) ن م ص ٥٦ ـ ٥٧

(٢) ن م ص ٧٤

(٣) ن م ص ٧٧ (٤) ن م ص ٧٨

العربية : « اشعرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده » «١»

وينقل قولا في تفضيل حسان ويقول : « وابن سلام يقوله» «٢»

ويقول : « ومن شعر حسان الرائع الجيد مامدح به بني جفنة من غسان ملوك الشام من كلمة :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول «٣»

ويقول في الكلمة الاخرى الطويلة :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما
أبى فعلنا المعروف ان ننطق الخنى وقائلنـــا بالعرب الا تكلما

ويقول عن قيس بن الخطيم :

« شاعر فن الناس من يفضله على حسان ولا أقول ذلك . » «٤»

وقال : « وكان ابو طالب شاعر جيد الكلام وابرع ماقال قصيدته التي مدح فيها النبي (ص) وهي :

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل «٥»

وقال عن الزبير بن عبد المطلب :

---

(١) ن م ص ٨٤

(٢) ن م ص ٤٧

(٣) ن م ص ٥٨

(٤) ن م ص ٩١

(٥) ن م ص ٩٨

« واجتمع الناس على ان الزبير بن عبد المطلب شاعراً والحاصل من شعره قليل » «١» وقال ابن سلام : « وفي البحرين شعر كثير جيد وفصاحة » «٢»

وقال : « ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهورا » .

وقال : « وفي . . المدينة واكنافها شعر جيد . منهم السموأل بن عاديا » (٣) وقال : « وكان كثير شاعر أهل الحجاز وانهم ليقدمونه على بعض من قدمناوهوشاعرفحل ولكنه منقوص حظه بالعراق »(٤)

و « كان لكثير في التشبيب نصيب وافر وجميل مقدم عليه في النسيب وله في فنون الشعر ماليس لجميل وكان جميل صادق الصبابة وكان كثير يقول : ولم يكن عاشقاً وكان راويه جميل » «٥»

ومن هذا العدد من النصوص التي تكاد تجمع كل آراء ابن سلام فيما يخص تفضيل الشعراء بعضهم على بعض فنتمكن ان نلخص الاسباب التي يفضل بها الشعراء بعضهم على بعض .

١ ـ القدم : نرى ذلك من تقديمه الشعراء الجاهليين على الشعراء

---

(١) ن م ص ٩٩

(٢) ن م ص ١١٣

(٣) ن م ص ١١٥

(٤) ن م ص ٢٠٢

(٥) ن م ص ٢٠٥

الاسلاميين .

٢ ـ كثرة الشعر : حيث نراه يقول : لو ان الاسود بن يعفر له قصيدة أخرى كقصيدته لكان في الطبقة الأولى ونرى ذلك واضحاً في تقديم الشعراء الذين كان شعرهم وافراً في البصرة .

٣ ـ تعدد الاغراض : حيث فضل كثير على جميل وجميل أشد أسر شعر منه ولكن كُثير كثير الاغراض !

٤ ـ الجودة : وهو يقدم الكثرة على الجودة ولكن الجودة يقدمها على شعر الشاعر ونسبه وما اليه .

٥ ـ النسب وشرف المحتد : وهذا يدخل أحياناً عند مفاضلة بعض الشعراء المغمورين بشاعر نسيب . قال عن عمرو بن شأس : « اكثر طبقته شعراً وكان ذا قدر وشرف ومنزلة في قوله »

والحالة التي دفعت بابن سلام بعيداً عن الذوق وساقته الى هذا التيار ممكنة التعليل . فهو قد نشأ في البصرة ، والبصرة والكوفة بيئتان بدأ الشعر يجمع فيها ويدرس و يصنف وعلى ذلك يكون الشاعر الذي شعره اكثر . والذي شعره اكثر دوراناً على الالسن لكثرته هو صاحب الشهرة في تلك البيئة الادبية والنحوية .

كما ان نظرته الى الشاعر الذي يجيد فنوناً كثيرة و تفضيله على غيره مستمدة من البيئة العربية التي تطالب الفرد أن يكون مجملا بكل الفضائل الخلقية ومن يكونه فهو الافضل ففي القرآن : « الهاكم التكاثر »

خطاب للعرب . كما ان البيئة العربية تعد القبيلة التي هي أكثر جنوداً وأعز نفراً مثل تميم وبكر هي أكرم وأفضل وذلك واضح في شعر جرير والفرزدق . والقبيلة القليلة العدد هي القبيلة الخاملة التي لا يدور لها ذكر في محفل . وعلى ذلك فذو الرمة يؤخر عن الفحول لأنه أطال الوقوف على الأطلال : اي اختص بفن واحد وهكذا الحكم أصدره عليه الفرزدق وما ادراك بالفرزدق مفاخراً . ولا ننسى شيئاً هاماً جداً ان ابن سلام قصر شعره على شعراء عرب ولم يضع في كتابه دراسة للشعراء المولدين من ابناء غير العرب .

— ٤ —

ان الجاحظ في الحقيقة أول من حاول ان يدرس الادب العربي على اسس جديدة غير الاسس القديمة . اعنى اسس الاجادة الفنية مجردة عن كل رغبة أو غاية مثل كون الشاعر غير عربي أو محدثا أو أن عقيدته غير مرغوب فيها . ونحيل القارىء إلى كتابنا . « النقد المنهجي عند الجاحظ » ففيه الكفاية عن دمدالجاحظ في تطويرالنقد وأثره فيمن خلفه من النقاد الذين جاءوا بعده أو عاصروه كابن قتيبة (٢٤٣ ـ ٢٧٦ هـ) فى كتابه (الشعر والشعراء)

اننا نلمس فى كتاب (الشعر والشعراء) روحا جديداً لاعهد لنا به . فلا نلمس روح التحيز التي لمسناها عند جماع اللغة والنحويين . كما

لا نلمس الميل عن الشاعر اذا جوّد في باب وعجز عن باقي ابواب الشعر لانه آثر تركه أو فضل غيره عليه .

وكان كتاب ابن قتيبه خلاصة لثورة ابن قتيبه النقدية على احكام العرب . ويمثل كتابه شخصيته الفقهية ـ فهو فقيه ـ ثم انه يجمع إلى جانب الذوق رغبته في تاليف كتاب يحوي على الشعراء الذين يستشهد بشعرهم على غريب الحديث والقرآن . كل ذلك جمع فى كتاب الشعر والشعراء .

قال ابن قتيبه فى رده على من تقدمه من النقاد وتفضيلهم القدماء :

« فكل من اتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له واثنينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما ان الرديء اذا ورد علينا المتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه وكان حق هذا الكتاب ان اودعه الاخبار عن جلالة الشعر . . » (١)

وهذا أول طالب فى مدرسة الجاحظ النقدية وهذا القول ان هو الا خلاصة لآراء الجاحظ فى نقد الشعر . وقد يحق لنا ان ننسبه القارىء إلى أقوال ابي نواس فى الثورة على القديم ليتمكن من ربط سلسلة النقد الادبى وتطورها .

ويذكر غرضه من تأليف الكتاب في قوله :

« وكان قصدي للمشهور من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الادب

(١) ابن قتيبه : طبقات الشعراء ص ٨

والذين يقع الاحتجاج باشعارهم والنحو في كتاب الله عز وجل وحديث الرسول (ص) . . . » «١»

واظن ان من الممكن تعليل هذه النزعة التي تميل الى تقدير الاثر الفني لذاته ليست هذه النزعة هي سلامة الذوق . وان كانت سلامة الذوق فليست وحدها . بل هناك شيء آخر. هو ان المؤلف فقيه متأثر بروح الاسلام ، والاسلام يميل نحو المساواة ومبدأه : « افضلكم عند الله اتقاكم » وهو يقول : « فكل من اتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه !! » «٢»

وان هذا القول لم يؤمن به العرب ولم يطيقوه بل تركوا للموالي في الحياة السياسية وهم أشبه بالعبيد وتركوا ادبهم خارج المحيط الادبي واعتبروه مدخولا لا يستشهد به وقيل عنهم انهم انباط وموالي لا يصح الاستشهاد بشعرهم فجاء ابن قتيبه ورأى أن الانسان اذا اجاد القول فلا يضيرنا من يكون . سواء اكان محدثا ام قديما .

والحقيقة ان الذوق عند ابن قتيبه ذوق سليم يدلنا عليه حسن اختياره وخاصة فيما يتعلق بقطع الغزل المتناثرة في كتابه . ويؤمن ان الذوق لايكتسب الا بكثرة المدارسة والسماع . قال : « وكل العلم محتاج الى السماع واحوجه الى ذلك علم الدين ثم الشعر » «٣»

---

(١) ن م ص ٥

(٢) ن م ص ٨ (٣) ن م ص ١٩

ويقول عن أشعار العلماء ويصدر في قوله عن ذوق سليم :

و « هذا الشعر رديء الصنعة وكذلك اشعار العلماء ليس منها الصنعة شيء جاء عن اسماح وسهولة كشعر الاصمعي وابن المقفع والخليل خلا خلف الاحمر فانه كان اجودهم طبعاً واكثرهم شعراً » «١»

وينقل هذه القصة ليدلل على ان حسن اختيار اللفظ يجود الشعر ويجعله مقبولا قال :

« وكان جرير ينشد بعض الخلفاء من بني أمية قصيدته التي اولها «بان الخليط برامتين فودعوا » وهو محتقر ويزحف اليه استحسانا حتى اذا بلغ قوله :

وتقول بوزع قد دببت على العصا

هلا هزئت بغيرنا يابوزع

فتر وقال « افسدت بهذا الاسم شعرك » وقال : « ويقدح في الحسن قبح اسمه ويزيد في مهانة الرجل فظاظة اسمه » «٢»

ولكن النزعة المنهجية في النقد وكونه فقيها تغلباه على ذوقه في تصنيف الشعر فهو كفقيه وكناقد صاحب منهج يرى ان الشعر يجب ان يحوي :

---

(١) ن م ص ١٢

(٢) ن م ص ١٢

١ ـ فكرة

٢ ـ معنى اخلاقي «١»

وعلى هذا يقسم الشعر الى اربعة اقسام :

١ ـ ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه «٢»

٢ ـ وضرب منه جاد معناه وقصرت الالفاظ عنه «٣»

٣ ـ وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه «٤» كقول نسب الى الاعشى :

ان محلا وان مرتحلا   وان في السفر اذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالحمـــد   وولى الملامة الرجلا
والارض حماله لما حمل   آلله وما ان ترد ماقعـــلا

ويقول عن الشعر ايضاً :

وهذا الشعر منحول لا أعرف منه شيء يستحسن الا قوله :

ياخير من يركب المطي ولا   يشرب كأساً بكف من بخلا

وكقول الخليل «٥»

---

(١) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب (الفصل الذي عقده عن طبقات الشعراء)

(٢) الشعر والشعراء ص ٨ ـ ٩

(٣) ن م ص ١٠

(٤) ن م ص ١١   (٥) ن م ص ١٤

ان الخليط تصدع فطر بدائك أوقـــع
لولا جوار حصـــان حور المدامـــع اربـــع
أم البنين وأسمـــا ثم الرباب ويوزع
لقلت للقلب ارحل اذا بدى لك اودع

« وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة . . . ولو لم يكن في هذا الشعر الا أم البنين ويوزع لكفاه »

٤ ـ وبقي ضرب رابع . . . وهذا الضرب الذي نعتبره اليوم الأدب الحق الذي يحسن الاستماع به . وهذا الشعر الذي ينحو نحو التصوير والخيال وان خلا من الفكرة والمعنى الاخلاقي ونراه يرفض هذا النوع ولا يعتبره شيئاً فيقول :

« وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا انت فتشته لم تجد هنـــاك طائلا » (١)

ويجمع تحت هذا القول اعذب اشعار العرب واجملها صوراً ويقول منه قول جرير :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لايزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وكقوله :

ان العيون التي فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين موتانا

---

(١) ن م ص ١٠

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به   وهن أضعف خلق الله انسانا

وبذلك يضرب بالذوق عرض الحائط في سبيل الفكرة والمعنى الاخلاقي ونجد تقسيمات اخرى للشعر الجيد الذي لم يتمكن ادخاله تحت تلك الاقسام الاربعة . فعله كما أراد فاخطأ لأنه ترك الذوق الميال الى الجميل فقال :

« وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه قد يختار على جهات وأسباب منها : الأصابة في التشبيه «١» كقول القائل :

بدأت بنا وابن الليالي كأنه   حسام جلت عنه القيود صقيل

فما زلت افني كل يوم شبابه   الى ان اتتك العيس وهي ضئيل

ومنه ما يختار ويحفظ لأن صاحبه لم يقل غيره «٢» كقول أبي ابن عبد الله بن أبي سلول المنافق :

متى مايكن مولاك خصمك لاتزل   تذل ويعلوك الذي لا تصارع

وهل ينهض البازي بغير جناحه   وان قص يوماً ريشه فهو واضع

« ومنه ما يختار ويحفظ لأنه غريب في معناه » «٣»

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به   ولا تكون له في الارض آثار

---

(١) ن م ص ٢٠

(٢) ن م ص ٢١

(٣) ن م ص ٢١

وقد يحفظ ويختار لنبل قائله كقول المأمون :

بعثتك مشتاقا ففزت بنظرة   واغفلتني حتى أسأت بك الظنا
وناجيت من أهوى وكنت مقربا   فياويح نفسي عن دنوك ما اغنى
ورددت طرفا في محاسن وجهها   ومتعت في اسماع نغمتها اذنا
ارى اثراً منها بعينيك لم يكن   لقد سرقت عيناك من عينها حسنا

ويقول :

« هذا الشعر شريف بصاحبه وبنفسه »

وسوف اتتبع النصوص التي تؤكد على انحراف ابن قتيبة بالشعر الا المبدأ الاخلاقي والديني الذي اكد عليه الاسلام وبذا اعتبر ابن قتيبة حلقة اخرى بعدما رأيناه زمن الدعوة والراشدين ان كثيراً من الشعراء سايروا الاسلام في نظرته واتجاهه الجديدين بالميل الى الشعر الاخلاقي والديني وشعر الزهد قال ابن قتيبة :

« قال ابو عبد الله الجمحي . كان امرؤ القيس ممن يتعهد في شعره » (١) وذلك في قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فالهيتها عن ذي تمائم محول

والبيب الذي بعده . .

---

(١) ن م ص ٣٤

(٢) ن م ص ٥٢

وقال :

سموت اليها بعد مانام أهلها سمّو حباب الماء حال على حال

ويقول عن قصيدة للافوه الأودي : « ومن جيد شعره . . قوله » ثم يقول : « وهذه القصيدة من جيد شعر العرب » (١) وفيها نزعة الزهد بينة واضحة منها :

انما نعمة قـــوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار

ويستحسن المعنى الديني فى قول لبيد بن ربيعة ويقول : « من جيد شعره » (٢)

اذا المرء أسرى ليلة ظن أنه قضى عملا والمرء ماعاش عامل
حبائـــله مبثوثة بعنانه ويفنى اذا ماأخطأته الحبائل
وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه اذا جمعت عند الآله المحاصل

ويقول عن جميل : « يستحسن قوله فى المساعدة » (٣)
وعن الكميت : « ويستجاد قوله في ذكر النبي (ص) » (٤)
ومن جيد شعره (الـكميت) قوله :

الا لا أرى الأيام يفنى عجيبها لطول ولا الاحداث تفنى خطوبها

---

(١) ن . م ص ٥٢
(٢) ن . م ص ٩١
(٣) ن . م ص ٢١٧
(٤) ن . م ص ٢٢٧

ولا غبن الايام يعرف بعضها ببعض من الاقوام الالبيبها (١)

ويقول عن بشار :

« و بشار بن برد . . كان يرمى بالزندقة وله شعر جيد في ذم الدنيا » (٢)

أما استحسانه « المعاني » فيظهر كذلك في كتابه واضحاً ويقول عن وجود المعنى في شعر المتلمس : « ومن جيد شعره » (٣)

وما كنت الا مثل قاطع كفه بكف له أخرى فأصبح أجذما
يداه أصابت هذه حتف هذه فلم يجد الاخرى عليها مقدما
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد له دركا في ان تبينا فاحجما
فاطرق اطراق الشجاع ولو رأى مساغا لنابيه الشجاع لصمما

ويقول عن قصيدة عمرو بن كلثوم التي استحسن فخرها :

« هي من جيد شعر العرب واحدى السبع المعلقات »

وفي هذا النص عدا ماورد في جمهرة أشعار العرب التي طبعت في القاهرة طبعة سقيمة لمؤلفها أبي زيد القرشي المتوفى سنة ١٧٠ هـ ولا يمكن من الطبعة الحالية الاطمئنان اذا كانت تقسيمات الجمهرة الحالية هي نفسها تقسيمات مؤلفها . وقد عجز كثير من الباحثين عن تاريخ

---

(١) ن . م ص ٢٢٦

(٢) ن . م ص ٢٩١

(٣) ن . م ص ٥٢

المعلقات أن يعرفوا المصدر الذي أخذ عنه صاحب العقد الفريد اسم المعلقات . ويستحسن كذلك معاني قصيدة عنترة:

« هل غادر الشعراء من متردم » ويقول :

« كانت العرب تسميها الذهبية» (١) وهي اشارة ثانيه الى المذهبات بعد الجمهرة والمقصود بها المعلقات هنا .

وبعد ذلك هناك أحكام الجانب الذوقي عند ابن قتيبة تظهر فى كتابه ولكن أحكامه عامة أيضاً كابن سلام . وهو جانب غير دقيق . يستجيد أبياتاً جميلة تدل على ذوق سليم ولكن هذا لايفيدنا في دراسة الذوق شيئاً ولا بأس أن نرى أحكامه ماهي !

فهـو على العموم يستحسن الشعر الذي يخلب اللب ويأخذ بنفس القارىء حتى ينتهي ويقول : « لله در القائل : أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه » (٢)

ويرى أن من له ذوق يعرف الشعر المطبوع من المتكلف فيقول :

« والمتكلف وان كان جيد معنى الشعر محكمه فليس به خفاء على ذوي العـلوم لتبينهم ما نزل بصاحبه فيه من طول التفكر ومن شدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف مابالمعاني حاجة اليـــه

---

(١) ن . م ص ٧٦

(٢) ن . م ص ١٩

وإثبات مابالمعاني غنى عنه » (١)

والشعراء بعد ذلك « بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الغزل » (٢) ويقول :

« وليس كل بان (أي ناظم لفن معين من الشعر) بصير بغيره ونحن نجد ذلك بعينه فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيباً وأجودهم تشبيهاً وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية فاذا صد الى المديح والهجاء خانه الطبع » (٣) وينقل في الرثاء قصيدة متمم بن نويرة ويقول عنها . « وهذه القصيدة أحسن ماقال » (٤) ومنها :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
أبى الصبر آيات أراها وانني ... أرى كل حبل دون حبلك أقطعا
واني متى ماادع باسمك لاتجب ... وكنت جديراً ان تجيب فتسمعا
فما شارف عيساء رعيت فرجعت ... حنيناً فابكى شجوها البرك أجمعا
ولا وجد أظآر ثلاث روائم ... راين مجراً من حوار ومصرعا
يذكرن ذا البث القديم بدائه ... اذا حنت الاولى سجعن لهامعا

---

(١) ن ٠ م ص ٢٢

(٢) ن ٠ م ص ٢٦

(٣) ن ٠ م ص ٢٦

(٤) ن ٠ م ص ١٢٠

باوجد مني يوم قام لمالك مناد فصيح بالفراق فاسمعا

ويدل اختيار ابن قتيبة على ذوق حساس مرهف يتأثر بالمشهد السار فينفعل له ويتأثر بالمشهد المحزن فينفعل له ولكنه ذوق عجز عن التعبير عن نفسه .

ويعلق على قصيدة لجميل بثينة قائلا : « وهـذا الشعر من أجود ماقال » (١) وينقل من القصيدة الابيات التالية :

علقت الهوى فيها وليداً فلم يزل الى اليوم ينمى حبها ويزيد
وافنيت عمري في انتظاري لوعدها فابليت فيها الدهر وهو جديد
فلا أنا مردود بما جئت طالباً ولا حبها فيما يبيد يبيـد

ويقول : ويستغث من شعره :

فلو تركت عقلي معي ماطلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

ويستجيد له !

خليلي فيما عشتما هل رايتما قتيلا بـكى من حب قاتله قبلي

وفي قراءة هذه النماذج ننتهي الى ان ذوق الرجل سليم الاختيار للشعر غير الاخلاقي .

وعلى ذلك فنحن نكاد نصل الى يقين لايزعزعه الشك ان ابن قتيبة كان ذواقة للشعر ولـكنه لم يتقدم خطوة الى الأمام في تعليل السبب في جمال الابيات ومقدار التناسق فيها وسبب الجمال !

وهو في الحقيقة متمم فى كتابه لـكتاب ابن سلام . فهو رغم

---

(١) ن . م ص ١٦٨

انه لم يرض أحكام ابن سلام الا انه أخذ بها أحياناً . وهذا نموذج لما اخذ عنه : « هـذا الشعر شريف بصاحبه وبنفسه »(١)

حيث جعل شرف الشاعر ونبله مقياساً له في حكمه على شعر المأمون وجعل ذا الرمة متأخراً عن باقي الشعراء من الفحول لانه قصد فناً واحداً ويقول : « اذا صد الى المديح والهجاء خانه الطبع وذلك الذى أخره عن الفحول . فقيل فى شعره : أبعار غزلان ونقط عروس» (٢) وهذا مقياس ابن سلام في تفضيل كثير على جميل .

ويقول عن امرىء القيس :

« من الطبقة الاولى » فبأى مقياس يقول هذا القول ؟ انه أخذ القول عن ابن سلام الذى وضع امرأ القيس في الطبقة الاولى . ويقول عن الاعشى :

«وكان اكثر عدد طوال جياد وأوصف للخمر وأمدح وأهجى »

وهذا مقياس ابن سلام في تعدد الاغراض . وعلى هـذا أن النقد الى الآن - زمن ابن قتيبة - لازال جاهلياً أو كالجاهلي . بدائي يشير الى مواطن الجمال ويعجز الى تعليله .

— ٥ —

أما كتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر « ٢٦٥ - ٢٩٧ هـ »

(١) ن . م ص ٢٢

(٢) ن . م ص ٢٦

فهو كتاب حاول فيه أن يضع حدوداً للشعر ومقاييس يدل فيهـا على جيده من رديئه أو بكلمة أوضح انه حاول أن يقيد الذوق بقيود معينة إذا احتواها الشعر كان يجب أن يستحسنه ذوقنا واذا خرج عنها كان يجب أن يمجه إن كتاب قدامة بالاضافة الى هذا مزج بكثير من بحوث البلاغة المتأثرة بكتاب « الخطابة » لارسطو ولـكن مع هذا لم يعدم كتاب قدامة الذى مزجت فيه الفلسفة والمنطق بالأدب لم يعدم من فلتات حرة سمت على عصره الذى عاش فيه . فهو قـد أعطى الحرية للشاعر وعدم تحديد معنى من المعاني عليه لانه يمس خلقاً أو عرفاً أو قانوناً .

فقال : « ومما يجب تقدمته وتوطيده ما اريد ان اتكلم فيه ان المعاني كلها معرفة للشاعر وله ان يتكلم في ما احب وآثر دون ان يحظر عليه معنى يروم الـكلام فيه » (١)

فاني رايت من يعيب امرأ القيس في قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فالهيتها عن ذى تمائم محول
اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

« يذكرون ان هذا المعنى فاحش وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر . » (٢)

---

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٣

(٢) ن . م ص ١٤

في هذين النصين فكرتين متمايزتين أولاهما فكرة إسلامية حديثة والثانية فكرة ارسطوطالية قديمة ٠

ففي القرن الثالث في عصر الحضارة الاسلامية الذهبي حيث انتشرت المعرفة على أوسع مايمكن ان تنتشر في مجتمع متدين مثقف فرأي العلماء والنقاد انه لايمكن ان تنتشر المعرفة ويتم الابداع الا اذا اطلقنا الحرية الفكرية اطلاقاً تاماً مطلقاً من كل قيد وتحديد ٠

فالجاحظ قد سبق ابن قتيبة ولا شك في النداء بهذه الفكرة بل انه قررها في كتاب الحيوان وكأنها حقيقة واقعة وانا لنتخيل ان الكاتب وهو يكتب كلمته تلك ليشعر من أعماق قلبه انه حر فيما يعتقد وفيما يريد ان يقول ٠ ولا بأس ان نكرر نقل نص الجاحظ فقد سبق ان ذكرناه في مقال سابق من هذا الكتاب ٠ قال :

« فما ينتظر العالم باظهار ماعنده ومما يمنع الناصر للحق بما يلزمه ؟ وقد امكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقية وهبت ريح العلماء وكسد العيّ والجهل وقامت سوق البيان والعلم » (١)

أما الفكرة: ان فحاشة الشاعر أو مايقابلها عن أرسطو والجاحظ وهو خطأ الشاعر فيما يتكلم او يصف لايعيب جودة شعره لانه قد يصف ركوب الفرس وهو لايحسن ركوبه أو يصف الصحراء بشعر جيد وهو لم يعش في الصحراء طويلا فيخطأ في تفهم حياتها ولكن هـذا

(١) الجاحظ ـ الحيوان ج ١ ص ٨٦ـ٨٧

لا يمنع ان نأخذ الشعر كشعر دون النظر الى مايحوي من صحة الحقيقة العلمية المذكورة فيه (١) ويصدر في استحسان النص الشعري عن قناعته ان الشاعر قد عبر عن تجربة عامة مشتركة يحسها القارىء كما يحسها الناظم او الكاتب وبهذا يتميز فى رايه الممتاز من الشعراء عن غيره . قال :

« ومما اختم القول فيه ان المحسن من الشعراء هو الذي يصف من أحوال مايجده مايعلم به كل ذي وجد حاضر او داثر انه يجد او قد وجد مثله حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر » (٢)

فها هو يضع لنا مبدأ عاماً ان عمومية التجربة الفنيـة هي أساس المقايسة والامتياز وهو من المبادىء التي لازال مأخوذاً بها حتى اليوم فى قياس جودة الآثار الفنية . ويقول :

« فمن ذلك قول أبي صخر الهذلي يصف ماارى ان كل متعلق بمودة يجد مثله . يقول :

أما والذي ابكى واضحك والذي ... امات واحيا والذي امره الامر
لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها ... بتاتاً لاخرى الدهر ماطلع الفجر
فما هو الا ان اراها فجاءة ... فابهت لاعرف لدى ولا نكر

(١) راجع فصل بين ارسطو والجاحظ في كتابنا « النقد المنهجي عند الجاحظ »

(٢) نقد الشعر ص ١٢٧

.. فلا محل للذوق الادبي في كتابه فهو فى الحقيقة يدل على رغبة اكيدة فى بناء ذوق على قواعد منهجية معينة .

ومع ذلك فاننا لا نظلم الرجل فقد أصاب احياناً اصابة النقاد المجيدين وعرض علينا افكاراً ممتازة حيث لم يقيد الشاعر فى الفن الشعرى والزامه طريقة معينة كابن قتيبة مثلا .

وقد حمل الدكتور محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجي عند العرب) حملة تصل به الى وصف ابن قتيبة بالغباء وبلادة الذوق وليس هذا ايضاً من الذوق السليم فى مكان ما . وقد حاول الرجل ففشل وفي الحالين أراد الخير !

— ٦ —

اما في القرن الرابع والخامس هجريين فاننا سنتناول مجموعة اخرى من آثار كتاب هذين القرنين من كتاب وبلاغيي العرب وسيكون مدار بحثنا عن النقد عند الآمدى وابي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني وابي الهلال العسكري وابي العلاء المعري وعبد القاهر الجرجاني مؤلف كتابي دلائل الاعجاز واسرار البلاغة .

فالآمدي هو ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيي الآمدى . وكان جيد الرواية وله معرفة شاملة متسعة بالادب ومن آثاره المصنفة « المختلف والمؤتلف في اسماء الشعراء . ولد في البصرة ثم قدم بغداد ولي قضاء البصرة ومات سنة ٣٧٠ هـ

أما ابو الحسن الجرجاني فقد ولد في جرجان سنة ٢٩٠هـ وطاف البلاد ثم عرج على الصاحب فاشتد اختصاصه به وتقلد القضاء في جرجان ولما مات الصاحب رقت حاله ومات بالري سنة ٣٩٢ هـ ومات ابو هـلال العسكري سنة ٣٩٥ هـ ٠ اما ابو العلاء فغني عن التعريف ولكن يجب ان تذكر انه عاش بين «٣٦٣-٤٣٦هـ» وعاش عبد القادر في القرن الخامس وهو من رجال الذوق يتلخص مبدأه في اسرار البلاغة : «ان الالفاظ خدم المعاني» توفي عام ٤٧١ هـ وترك كتباً أهمها دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ٠

فهم الآمدي والجرجاني النقد على انه تناول شاعر او شاعرين لغرض المقارنة والتدقيق بين حسنات كل منهما وهفوات الاخر مقارنة تعتمد على التدقيق والمنهج والذوق (١)

قال الآمدي في كتاب الوساطة بين ابي تمام والبحتري: «ولست أحب ان اطلق القول بايهما اشعر عندي لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر ولا أرى لاحد ان يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين لان الناس لم يتفقوا على أي الاربعة اشعر في امرئ القيس والنابغة وزهير والاعشى ولا في جرير والفرزدق والاخطل ولا في بشار ومروان ولا في ابي نواس وابي العتاهية ومسلم لاختلاف آراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه فان كنت - ادام الله سلامتك - ممن يفضل سهل

(١) راجع النقد المنهجي للدكتور محمد مندور

الكلام وتريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري اشعر عندك ضرورة وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فابو تمام عندك اشعر لامحالة فاما انا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكني اقارن بين قصيدتين من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية وبين معنى ومعنى فاقول ايهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ثم احكم انت حينئذ على جملة مالكل واحد منهما اذا احطت علماً بالجيد والردىء » (١)

ونفس هذا الروح العادل يصدر عنه صاحب الوساطة في نقده فهو يتزعم الوساطة بين المتنبي وخصومه ولا يهمه اكان المتنبي صائباً او خاطئاً، محسناً ام غير محسن وانما عليه ان يقول الحق . قال صاحب الوساطة:

« وما زلت أرى اهل الادب منذ الحقتني الرغبة بجملتهم ووصلت العناية بيني وبينهم في ابي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقريضه منقطع اليه · وعائب يروم ازالته عن رتبته فلم يسلم له فضله ويحاول حطه عن منزلة بوأها اياها ادبه فهو يجتهد في اخباء فضائله واظهار معايبه وتتبع سقطاته واذاعة غفلاته وكلا الفريقين اما ظالم له أو للادب فيه » (٢)

---

(١) الآمدي : الموازنة ص ١١ ـ ١٢ / قاهرة ٩٥٤

(٢) الوساطة : ص ١٣ (طبعة اولى)

ويقول « وليس يجب اذا رايتني امدح محدثاً او اذكر محاسن حضري ان تظن بي الانحراف عن متقدم او تنسبني الى الغض من بدوي، بل يجب ان تنظر في مغزاي فيه وان تكشف عن مقصدي منه ثم تحكم علي حكم المنصف المتثبت وتقضي قضاء المقسط المتوقف ! » (١)

ويرى الآمدى ان من الضروري جداً أن يصدر الشاعر عن طبع غير متكلف وبهذا يرجعنا الذوق السليم في الاختيار للفظة . قال : « وانا اذكر في هذا الجزء الرذل من الفاظه الساقط من معانيه والقبيح من استعاراته والمستكره المتعقد من نسجه ونظمه على ما رأيت من اشعار المتقدمين فعلمت انه بذلك اغتر وعليه في القدر اعتمد طلبا منه بالاغراق والابداع وميلا الى وحشي المعاني والألفاظ وانما كان يندر من هذه الانواع المستكره على لسان الشاعر المحسن البيت او البيتان يتجاوز له عن ذلك لان الاعرابي لا يقول إلا على قريحة ولا يعتصم الا بخاطره ولا يستقي الا من قلبه . أما المتأخر الذى يطبع على قوالب ويحذو على امثلة ويتعلم الشعر تعلماً ويأخذ تلقفا فمن شأنه ان يتجنب المذموم ولا يتبع من تقدمه الا فيما استحسن منهم واستجيد لهم واختير من كلامهم أو في المتوسط السالم اذا لم يقدر على الجيد البارع ولا يوقع الاحتطاب والاستكثار مما جاء منهم نادراً ومن معانيهم شاذاً ويجعله حجة له وعذر فان الشاعر قد يعاب باشد العيب اذا قصد بالصنعة سائر

(١) الوساطة : ص ٢١ (طبعة اولى)

شعره وبالابداع جميع فنونه فان مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجه سهل التأليف الى سوف التكلف » (١)

ويقول عبد العزيز الجرجاني في ضرورة الصدور عن طبع وعدم تكلف « فان رام أحدهم (أى المحدثين) الاغراب والاقتداء بمن مضى من القــدماء لم يتمكن من بعض مايرومه الا باشد تكلف وأتم صنع ومع التكلف المقت وللنفس عن التصنع نفرة وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق وإخلاق الديباجة وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن كالذى نجده كثيراً في شعر ابي تمام فانه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالاوائل في كثير من الفاظه فحصل منه على توعير اللفظ فقبح فى غير موضع من شعره » (٢)

ويقوم النقد الذى يوجهه الامدى لابي تمام من لسان الخصوم على أساسين :

أولها : اخطاءه العلمية اذا صح هذا التعبير . فانه لم يحسن وصف عادات الجاهليين وطرقهم فى الحياة . وهذا لم يعتبر عيباً كما عرفنا عند ابن قتيبة وارسطو والجاحظ . ولكن اثر دعاة القديم لازال ظاهراً في هذا النقد . قال الامدى :

ومن اخطاءه قوله :

---

(١) لآمدى ص ٢٠٧

(٢) الجرجاني : الوساطة . قاهرة ١٩٥١/ص ١٩ (طبعة ثانية)

ظعنوا فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد
أجدر بجمرة لوعة إطفاؤها بالدمع ان تزداد طول وقود

وهذا خلاف ماعليه العرب وضد ما يعرف من معانيها لان من شأن الدمع ان يطفىء الغليل ويبرد حرارة الحزن ويزيل شدة الوجد ويعقب الراحة وهو في اشعارهم كثير ينحى به هـذا النحو من المعنى فمن ذلك قول امرىء القيس :

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول(١)

ومن هـذه الاخطاء الفلسفية والنحوية والدينية كلها قد جمعت تحت هذا الباب .

٢ ـ التوسع في الاستعارة والمجاز :

قال ابو تمام :

كأنني حين جردت الرجاء له غضاً صببت لها ماء على الزمن

قال الآمدي :

« وأشباه هذا مما اذا تتبعته في شعره وجدته . فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الالفاظ للدهر أخدعاً ويداً تقطع من الزند وكأنه يصرع ويحـل ويشرق بالكرام ويبتسم وان الايام تنزله والزمان ابلق وجعل للمـــدح يداً ولقصائده مزامر الا انها لاتنفخ ولا تزمر وجعل المعروف مسلماً مرة ومرتداً اخـــرى والحادث وغداً وجذب ندى

(١) الآمدي ص ١٧٠ـ٧١

الممدوح بزعمه جذبة حتى خر صريعاً بين يدي قصائده وجعل المجد مما يحقد عليه الخوف وان له جسداً وكبداً وجعل لصروف النوى قداً وللامن فرشاً وظن ان الغيث كان دهراً حائكاً وجعل للايام ظهراً يركب والليالي كأنها عوارك والزمان كأنه صب عليه ماء والفرس كأنه ابن الزمان الابلق . وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب . وانما استعارت العرب المعنى لما ليس له اذا كان يقاربه او يدانيه او يشبهه في بعض أحواله أو كان سبباً من اسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه » (١)

وأراد خصوم أبي تمام من دعاة القديم الثبات بالخيال الشعرى على نسق مانظم العرب وما اخترعوه من استعارات وقابليات وهذا اضعاف للفن الشعرى ولا شك ! ولماذا تركوا غيره من الشعراء واعابوا على ابي تمام وحده هذا الفن ! !

الناقد الادبي وصفاته في كتابي الآمدي والجرجاني :

ودافع كل من الآمدي وابي الحسن الجرجاني عن ضرورة وجود الناقد الادبي واستقلاله عن غيره وعدم اجازة غير الناقد الخبير ان يقوم بالمفاضلة بين الشعراء .

(١) الآمدي ص ٢١٣

قال الآمدي :

« وانبه على الجيد وافضله على الردى وابين الردى وارذله واذكر من علل الجميع ماينتهي اليه التخليص وتحيط به العناية ويبقي مالم يمكن اخراجه الى البيان ولا اظهاره الى الاحتجاج . وهي علة مالا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة وبهذا يفضل اهل الحذاقة بكل علم وصناعة ماسواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته بعد ان يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج والا لايتم ذلك . واكلك بعد ذلك الى اختيارك وما تقضي عليه فطنتك وتمييزك فينبغي ان تتم النظر فيه فيما يرد عليك ولا ينتفع بالنظر الا من يحسن ان يتأمل . واذا تأمل علم . واذا علم انصف ! » (١)

ويلوم من يعرض لنقد الشعر عدم علم ومعرفة به ودون إطلاع فيقول :

« ثم ان العلم بالشعر خص بان يدعيه كل أحد وان يتعاطاه من ليس من اهله . فلم لايدعي احد هؤلاء المعرفة بالعين والورق والخيل والسلاح والرقيق والبز والطيب وانواعه ... وكذلك السيف لما بهره جلاؤه وصقاله وصفاء حديده لم يمض في اختياره على غيره من السيوف حتى شاور من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه .. فكيف لم يفعل ذلك بالشعر لما راقه حسن وزنه وقوافيه ودقيق معانيه وما

(١) الآمدي ٣٤٣ ـ ٣٤٤

يشتمل عليه من مواعظ وادب وحكم وامثال . فلم يتوقف على الحكم له على ماسواه حتى يرجع الى من هو اعلم منه بالفاظه واستواء نظمه وصحة سبكه ووضع الكلام منه في مواضعه وكثرة مائه ورونقه . اذ كان الشعر لايحكم له بالجودة إلا بان تجتمع هذه الخلال فيه » (١)

فكيف نكون ذوقاً ادبياً اذن اوما شرط ذلك :

يرى الآمدي انه في الامكان تكوين ذوق ادبي ويمكن من الحكم على الشعراء وتفضيلهم وتذوق الشعر . فيقول :

« وبعد فاني ادلك على ما تنتهي اليه البصيرة والعلم بامر نفسك في معرفتك بامر هذه الصناعة او الجهل بها . وهو ان تنظر جميع ماأجمع عليه الائمة فى علم الشعر من تفضيل بعض الشعراء على بعض . فان عرفت علة ذلك فقد علمت وان لم تعرفها فقد جهلت . وذلك بان تتأمل شعر أوس بن حجر والنابغة الجعدي فتنظر من اين فضلوا اوساً وتنظر فى في شعر كثير بن عبد الرحمن و بشر بن أبي مقبل فتنظر من أين فضلوا كثيراً . الخ » (٢) ثم يقول :

« فهذا الباب اقرب الاشياء لك الى ان تعلم حالك في العلم بالشعر ونقده فان علمت ماعلموه ولاح لك الطريق التي بها قدموا من قدموه واخروا من أخروه فثق حينئذ بنفسك واحكم يستمع حكمك وان لم

---

(١) ن . م ص ٣٤٤

(٢) آمدى ص ٣٤٧

يفته بك التأمل الى علم ذلك فاعلم انك بمعزل عن الصناعة ... فان قلت انك قد انتهى بك التأمل الى عـــلم ماعلموه لم يقبل ذلك منك حتى تذكر العلل والاسباب فان لم تقدر على تلخيص العبارة عن ذلك حتى تعلم شواهد ذلك من فهمك ودليله من اختياراتك وتمييزك بين الجيد والردىء » (١)

وهو لايعلم بنقد الشعر الا لمن تخصص لذلك وافنى منه جهـــداً كبيراً . قال :

« فمن سبيل من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له ان يقضى له بالعلم بالشعر والمعرفة باغراضه وان يسلم له الحكم فيه ويقبل منه مايقوله ويعمل على تمثاله ولا ينازع في شيء من ذلك اذ كان من الواجب ان يسلم لاهل كل صناعة صناعتهم ولايخاصمهم فيها ولاينازعهم إلامن كان مثلهم نظراً في الخبرة وطول الدربة والملابسة فانه ليس في وسع كل أحد أن يجعلك ايها السائل المتعنت والمسترشد المتعلم في العلم بصناعته كنفسه ولا يجد الى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده وهو أخص الناس به سبيلا » (٢)

« لان مالا يدرك الا على طول الزمان ومرور الايام لايجوز ان تحيط به في ساعة من نهار » (٣)

---

(١) آمدى ص ٣٤٨

(٢) آمدي ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦

(٣) آمدى ص ٣٤٦

ويحلل اسباب هذه الدعوة الى التخصص في فن واحد من الفنون كالنقد والفقه والنحو الخ . فيقول :

قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر لان كل امرىء انما يتيسر له مافى طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه ، فينبغي اصلحك الله ان تقف حيث وقف بك وتقنع بما قسم لك ولا تتعدى الى ماليس من شأنك ولا من صناعتك » (١)

ويشير الجرجاني أيضاً الى ضرورة وجود المران والدربة الكثيرة لضرورة تكوين ذوق . قال :

« أنا اقول ـ أيدك الله ـ ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه . فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ولست افضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والاعرابي والمولد الا انني أرى حاجة المحدث الى الرواية أمس وأجده الى كثرة الحفظ أفقر فاذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها ان المطبوع الذكي لايمكنه تناول الفاظ العرب الا رواية ولا طريق للرواية الا السمع وملاك الرواية الحفظ وقد كانت العرب تروى وتحفظ ويعرف بعضها برواية شعر بعض ، كما قيل ان زهيراً كان راوية اوس وان الحطيئة

(١) ن م ص ٣٤٨

راوية زهير ... وكان عبيد راوية الأعشى ولم نسمع له كلمة تامة كما لم يسمع لحسين راوية جرير » (١) .

وكان يرى ان الذوق يشحذ ويقوى بعد الاطلاع على الأدب القديم بعصوره كشعر جرير وذي الرمة والبحتري وتتبع متيمي العرب ومتغزلي أهل الحجاز (٢) .

ويرى ان الذوق السليم ينبو عن كل لفظ عسر المعنى غير مفهوم ويقول :

« فان روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم » (٣) .

« وملاك هذا الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ولست أعني بهذا كل طبع بل المهذب الذي قد صقله الأدب وشحذته الفطنة وألهم الفصل بين الرديء والجيد وتصور أمثلة الحسن والقبيح » (٤) .

وهكذا نجد منهجاً مرسوماً في هذين الكتابين للناقد واختصاصه ولعمل الناقد وللمنهج الذي أخضع له الشعراء على عصرهما ، ويرى الآمدي ان دراسة الأدب والمقارنة بين جيده ورديئه يجب أن تقوم على معرفة حقيقية وتذوق له يصدر عن ذوق سليم .

ثم ان في دراسته للشعراء قد جاء الآمدي مثلا بالمقارنة الدقيقة

(١) الوساطة ص ١٥ ـ ١٦

(٢) و(٣) و(٤) ن م ص ٢٥

بين جيد البحتري وجيد أبي تمام ورديء هذا ورديء ذاك وترك لك أن تختار وتفضل بين شاعر المعاني وشاعر الأسلوب !

— ٧ —

اما كتاب (الصناعتين) لأبي الهلال العسكري فانه يعتبر نقطة البداية في جمود الذوق بعد أن رأيناه مزدهراً عند الآمدي والجرجاني وكان الرجل مع ذلك واسع الاطلاع في الأدب يدل على اطلاعه كثرة شواهده . ويعتبر أبو هلال البلاغة واجبة المعرفة بعد معرفة الله (١)

ويدين أبو هلال بنظرية اللفظ التي سيردها عبد القاهر الجرجاني ويدين العسكري في هذه النظرية :

« وليس الشأن في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي والقروي والبدوي وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفنا من نعوته التي تقدمت وعلى هذا يذوي الذوق والمنهج العلمي عند العسكري بعد ازدهاره حيناً على يدي النقاد الكبار . ويضع العسكري أسس البلاغة العقلية التي سيطرت على عقلية علماء البلاغة لقرون طويلة .

(١) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ٣

أما (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري فانهـا لم تكتب لغرض النقد وإنما بقي علينا نحن أن نتتبع مواضع النقد ونخرجها. ونضعها ونجعل من أبي العلاء ناقداً رغماً عنه .

وكان (الذوق) عنـد أبي العلاء كما يفهمه القدامى كقدامة بن جعفر . فانه القابلية على معرفة الوزن الشعري فقط . قال عن الشعر :

« الاشعار جمع شعر والشعر . كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط ان زاد أو نقص أبانه الحس » واسمى الذوق على ذلك « الغريزة والحس » .

ويستعمل أبو العلاء المنهج التاريخي الى جانب المنهج الفني ولكنه يستعمله كما استعمله ابن سلام قبل ثلاثة قرون . فانه يرفض الشعر ولـكنه لا يعلل ذلك . قال على لسان آدم :

«اعزز علي بكم معشر أبيني انكم في الضلالة منهوكون (منحدرون) . . . ما نطقت هـذا النظيم ولا نُطق في عصرى وإنما نظمه بعض الفارغين فلا حول ولا قوة إلا بالله كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم ثم على حواء أمكم وكذب بعضكم على بعض » .

ويعجب بمعلقة طرفة ولا يعلل سبب اعجابه ويقول لطرفة :

« ولو لم يكن لك أثراً في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال

لـكنت قد أبقيت أثراً حسناً » .

وهو الوحيد الذى يحمل على الرجز من بين النقاد حملة منكرة لا يبقي منه ولا يذر . ويقول الدكتور أمجد الطرابلسي :

« ولم يعرف الرجز بين عائبيه ألد خصومة من المعرى » (١) .

وقال : « أما المعرى فلم يَرَ منه إلا فناً قاصراً يزرى بمروءة الشاعر ومقدرته » (٢) وحاربه فى الرسالة وفي اللزوميات :

قصرت ان تدرك العلياء فى شرف ان القصائد لم يلحق بها الرجز

ويقول :

ومن لم ينل في القوة رتبة شاعر فيقنع في نظم برتبة شاعر

والذي يبدو لي ان سبب كرهه له هو عدم مسايرته الذوق وخشونة ألفاظه وغرابة القافية . يقول على لسان ابن القارح لرؤبه :

« ياأبا الجحاف ماكان أكلفك بقواف ليست بالمعجبة تضع رجزاً على الغين ورجزاً على الطاء والظاء وعلى غير ذلك من الحروف النافرة ولم تكن صاحب مثل مذكور ولا لفظ مستحسن عذب » .

فيغضب رؤبه ويقول :

« إلي تقول هذا وعني أخذ الخليل وكذلك أبو عمرو بن العلاء ! »

فيقول ابن القارح :

---

(١) أمجد الطرابلسي : النقد واللغة فى رسالة الغفران ص ٨٧ـ٨٩

(٢) ن م ص ٨٩

« لو شبك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة »

وخلاصة القول فى مذهب أبى العلاء فى النقد وفى ذوقه :

انه أخذ بالمنهج الفني مع تذوق لأدب الشعراء ومقارنة أدبهم وما يذهب اليهم بعضه ببعض ولكنها مقارنة عامة تافهة واعجابه وتذوقه لبعض القصائد عام أيضاً لا نتمكن أن نخرج منه بقواعد معينة . كما انه يميل الى الشعر الأخلاقي الذى يحوى الحكم والأمثال .

— ٩ —

ونعتبر خاتمة المطاف فى دراستنا الذوق عند عبد القاهر الجرجانى وأهم ما تميز به واشتهر به في كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » هو :

١ ـ ذوق حساس نفاذ يحلل مواطن الحسن تحليلا يمزج فيه معارف العربية كلها كالنحو والبلاغة ليخرج لك سبب الجمال فى البيت

٢ ـ نظرية اللفظ والمعنى وتكاملهما ثم أثرهما في نقل الصورة الأدبية وقد امتزج البحث في الذوق عند الكتابة عن نظريته امتزاجا قويا حتى لا يمكن البحث فيهما منفصلين . يقول في دلائل الاعجاز :

« فاذا رأوا التنكير يكون فيما لا يحصى من المواضع ثم لا يقتضي فضلا ولا يوجب مزية اتهمونا في دعوانا ما ادعيناه لتنكير (حياة) في قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » من أن حسناً ومزية .

وان فيه بلاغة عجيبة وظنوه وهماً منا وتخيلا ولسنا نستطيع فى كشف الشبهة فى هـذا عنهم وتصوير الذي هو الحق عندهم ما استطعناه فى نفس النظم لأنا ملكنا فى ذلك أن نضطرهم الى أن يعلموا صحة ما نقول وليس الأمر في هذه كذلك . فليس الداء فيه بالهين ولا هو بحيث رمت العلاج منه وجدت الامكان فيه مع كل أحـد مسعفاً والسعي منجحاً لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية . أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث لها علماً بها حتى يكون مهيئاً لادراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون له (ذوق) وقريحة يجد لها في نفسه احساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق ان تعرض فيها المزية على الجملة » (١) .

ويقول أيضاً :

« وكما لا يقيم الشعر في نفس من لاذوق له كذلك لا يفهم هـذا الشأن من لم يؤت الآلة التي بها يفهم إلا أنه إنما يكون البلاء اذا ظن العادم لها انه اوتيها وانه ممن يكمل للحكم ويصح منه القضاء ... فان الذي يحس بالنقص من نفسه ويعلم انه قد عدم علماً قد اوتيه من سواه فأنت منه فى راحة وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره وأن يتكلف ما ليس بأهل له » (٢) .

ويقول عن سبب استحسان الشعر انه راجع لا الى الحروف

---

(١) الجرجاني : دلائل الاعجاز ص ٤١٩ (٢) ن م ص ٤٢٢

المنمقة وإنما راجع إلى ذوق القارىء :

« واذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق وحسن أنيق وعذب سائغ وخلوب رائع فاعلم انه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى أجراس الحروف والى ظاهر الوضع اللغوي بل الى أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل يقتدحه العقل من زناده » (١) .

ويرد على المسرفين في (البديع) ويجعل ذلك مفسداً للكلام ومما يأباه الذوق : « وقد تجد في كلام المتأخرين ، الآن ، كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بامور الى ماله اسم في البديع الى أن ينسى انه يتكلم ليُفهم ويقول ليبين » (٢) .

ويرسم طريقاً للكلام الذى يقبله الذوق ولا يأباه فيقول :

« ولن تجد أيمن طائراً وأحسن أولا وآخراً وأهدى الى الاحسان وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيتها أو ندعها تطلب لنفسها الألفاظ فانها اذا تركت وما تريد لم تكتسي إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارضة إلا ما يزينها فاما أن تضع في نفسك انه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظتين مخصوصتين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطه من الخطأ والوقوع فى الذم » (٣) .

(١) الجرجاني : أسرار البلاغة ص ٩

(٢) ن م ص ١٣ (٣) ن م ص ١٩

مصادر البحث

١ - ابن المعتز : ديوان أمير المؤمنين ابن المعتز العباسي
٢ - ابن المعتز : طبقات الشعراء
٣ - ابن عبد ربه : العقد الفريد
٤ - ابن خلكان : الوفيات
٥ - ابن سلام : طبقات الشعراء
٦ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء
٧ - ابن رشيق : العمدة
٨ - ابن منظور : لسان العرب
٩ - ابن خلدون : المقدمة
١٠ - ابن حزم : طوق الحمامة
١١ - أبو الفرج الاصبهاني : الأغاني
١٢ - أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين
١٣ - أمجد الطرابلسي (الدكتور) : النقد واللغة في رسالة الغفران
١٤ - الآمدي : الموازنة بين أبي تمام والبحتري
١٥ - آسل ابركرومبي : قواعد النقد الأدبي
١٦ - الجاحظ : الحيوان
١٧ - الجاحظ (؟) المحاسن والأضداد
١٨ - الجاحظ : رسائل الجاحظ . ط الحاجري
١٩ - الجاحظ : البخلاء
٢٠ - الجرجاني (عبد القاهر) دلائل الاعجاز

٢١ - الجرجانى (عبد القاهر) أسرار البلاغة
٢٢ - الجرجانى (أبو الحسن) الوساطة بين المتنبي وخصومه
٢٣ - جميل سعيد (الدكتور) الوصف فى شعر العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين
٢٤ - الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد
٢٥ - دائرة المعارف الاسلامية
٢٦ - شفيق جبرى : الجاحظ معلم العقل
٢٧ - الصولى : الأوراق
٢٨ - الصولى : أخبار أبى تمام
٢٩ - الطبرى : تاريخ أخبار الأمم والملوك
٣٠ - طه أحمد ابراهيم : النقد الأدبى عند العرب فى العصر الجاهلى حتى القرن الرابع الهجرى
٣١ - عباس بن الأحنف : ديوان عباس بن الأحنف
٣٢ - غناوى (الدكتور) الأدب فى ظل بنى بويه
٣٣ - قدامة بن جعفر : نقد الشعر
٣٤ - الكميت : الهاشميات
٣٥ - المبرد : الكامل
٣٦ - المسعودى : التنبيه والأشراف
٣٧ - محمد مندور (الدكتور) : النقد المنهجى عند العرب

المراجع الأجنبية

38 - TAINE : HISTORY OF ENGLISH LITERATURE, EDINBURGH, 1873

الفهرست

صفحة

ESSAYS
ON
ANCIENT ARABIC LITERATURE

توزيع مكتب مني للطباعة والنشر والاعلان
شارع المحاكم : تلفون ٢٥٧٤٢

By
Dr. D. Salloum

السعر ١٥٠ فلساً